

سلسلة
الدروس
الثقافية

منازل الآيات

الإعداد والإخراج الإلكتروني

www.almaaref.org

مركز المراجعين

مركز
نون
للناثف والترجمة

منازل الآيات

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام

هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠

ص.ب. ٢٤/٥٣ . ٢٥/٣٢٧



الإعداد والإخراج الإلكتروني
www.almaaref.org

الكتاب : منازل الآيات

إعداد : مركز نوّ للتأليف و الترجمة

نشر : جمعية المعارف الإسلامية الثقافية

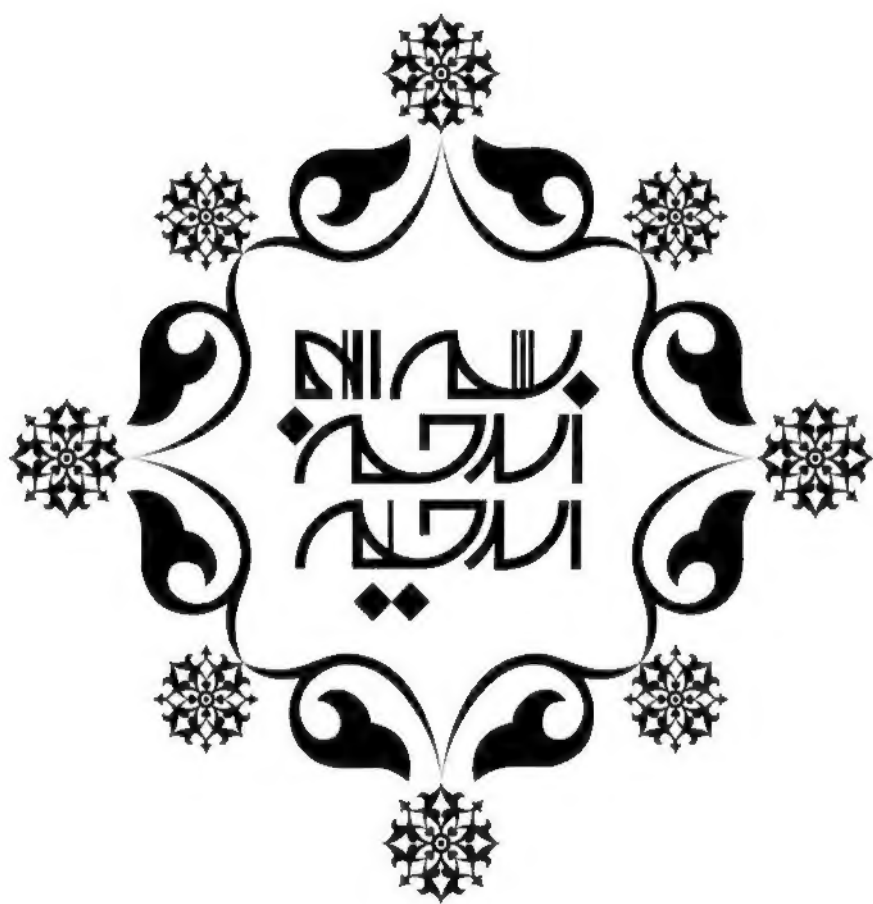
الطبعة الأولى نيسان - 2009م - 1430

منازل الآيات

مركز مؤلفي القرآن للتحقيق والتأليف والتوزيع

الإعداد والإخراج الإلكتروني

www.almaaref.org



المقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

إن القرآن الكريم هو المدرسة الإلهية المفتوحة على مر الأزمان لتخرج المؤمنين والأتقياء والصالحين والأولياء، ينهل من نوره من أراد، يخاطب الناس جميعاً على اختلاف قدراتهم العلمية وقابلياتهم الذهنية.

والقَصَص هو أحد الأساليب القرآنية لإيصال النور والهداية إلى العقول والقلوب، ويتميز بقوته وتأثيره وإمكانية الاستفادة منه وإدراكه وإيصال أهدافه إلى جميع أفراد الإنسان.

وهذا الكتاب الماثل بين يديك يتعرض لمجموعة من القصص القرآنية لبيان أهدافها وشرح مفرداتها والاضاءة على مفاهيمها، ليضاف إلى سلسلة الدروس الثقافية.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل القرآن الكريم، الذين يهتدون بهداه، ويوفقنا لأخذ قصصه عبرة تعيننا على ديانا لتقومها وتصلح آخرتنا، فنكون من الفائزين، وله الحمد أولاً وآخرأ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدرس الأول

حبّ الجاه والعزة
الموهومة

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لِنَنْزِعَنَّا إِلَى الْمَدِينَةِ لِنُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١)

قصة هاتين الآيتين

عند عودة الناس من إحدى الغزوات وردت واردتهم^(٢) ومع أحد المسلمين أجير له غفاريّ من المهاجرين يقود فرساً، فازدحم المهاجري مع رجل من بني عوف بن خزرج وهم من الأنصار على الماء فاقتتلا فصرخ الأنصاري: يا معشر الأنصار؛ وصرخ الغفاري: يا معشر المهاجرين؛ فأعان الغفاري رجل من المهاجرين يقال له جعال وكان فقيراً فقال عبد الله بن أبي لجعال: إنك لهتّاك، فقال: وما يمنعني أن أفعل ذلك؟ واشتد لسان جعال على عبد الله، فقال عبد الله: والذي يحلف به غير

(١) المنافقون: الآيتان ٧ و٨.

(٢) الواردة: هم القوم الذين يأتون إلى مواضع الماء.

علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالديه مني وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي أن يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال عليه السلام: بل ترفق به وتحسن صحبته ما بقي معنا^(١).

حب السلطة من أعظم الأمراض

إن من أعظم ما يُبتلى به الإنسان المؤمن ويؤدي إلى خروجه من الإيمان إلى الكفر هو تعلقه بالسلطة والجاه، فإنه يفتك بكل مقومات إيمان المسلم، وقد ورد في الرواية عن رسول الله ﷺ: ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم، بأكثر فساداً فيها من حب المال والجاه في دين الرجل المسلم^(٢).

وإنما كان التعلق بالرئاسة أخطر من التعلق بالمال أو الدينار لأن الإنسان قد يبذل المال لأجل الوصول إلى السلطة والجاه دون العكس، فقد ورد في الرواية عن الإمام زين العابدين عليه السلام: إن في الناس من خسر الدنيا والآخرة يترك الدنيا للدنيا، ويرى أن لذة الرئاسة الباطلة أفضل من لذة الأموال والنعم المباحة المحللة، فيترك ذلك أجمع طلباً للرئاسة^(٣).

وهذا خير شاهد على شدة تعلق الإنسان بالجاه والسلطة، وكون ذلك من أقوى مكائد الشيطان وأشدّها فتكاً به.

آفات حب الرئاسة

١. التكبر والفخر

إن من البلاءات التي يبتلى بها طالب الرئاسة، وهو من أعظم المفاسد الأخلاقية، التكبر، فالإنسان المتعلق قلبه بحب الرئاسة متى رأى الناس تمشي خلفه وتنصاع لأوامره، أصيب بذلك الداء، فقد ورد في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: إياكم

(١) - تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ١٩ - ص ٢٨٢ - ٢٨٤ .

(٢) - جامع السعادات - محمد مهدي النراقي - ج ٢ ص ٣٦ .

(٣) - يحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٢ ص ٨٤ .

وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون، فوالله ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك^(١).
إن الشخص الذي يترأس الناس يبدأ بالتفاخر عليهم، وقد ورد في الرواية عن الإمام علي عليه السلام: آفة الرئاسة الفخر^(٢).

٢. ظلم الناس

إن تولّى الرئاسة والسلطة يُلقى على عاتق الإنسان مسؤولية إقامة العدل بين الناس، وأي تقصير في ذلك يجعل الإنسان مسؤولاً أمام الله عز وجل عن ذلك، فقد ورد عن رسول الله ﷺ: أول من يدخل النار أمير متسلط لم يعدل^(٣). ولا ينحصر مصداق هذه الرواية بمن يتولّى رئاسة الدولة أو المناصب العليا، بل يشمل حتى المسؤوليات الصغيرة والتي يكون المتصدي لها مسؤولاً عن دائرة ضيقة من الناس أو من الأعمال.

٣. النفاق

إنّ من الموروثات التي تنتقل إلى من يحب الرئاسة النفاق، وهو أخطر ما يمكن أن يعيشه من يحب الرئاسة، لأنّه وفي سبيل الرئاسة يسعى لمهادنة الناس واحداً بعد آخر، ويظهر بوجه حسنٍ أمام كل واحد منهم ولو كان ذلك مستلزماً لأن يكون ذا وجهين، وقد ورد في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: ورأيت الرجل يطلب الرئاسة لعرض الدنيا ويشهر نفسه بخبث اللسان ليتقى وتسند إليه الأمور^(٤).

العزة الحقيقية والعزة الموهومة

أولاً، العزة الحقيقية

العزة لله ولرسوله وللمؤمنين

(١) - الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ ص ٢٩٧.

(٢) - ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج ٢ ص ١٠٠٧.

(٣) - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٦٦ ص ٢٩٣.

(٤) - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٥٢ ص ٢٥٨.

العزة هي صفة تجعل الإنسان في مكانة ينال فيها الاحترام والتقدير، عن حق، وبأسباب موجبة للعزة ورد عدها في الروايات. فما هي موجبات العزة الحقيقية؟

أعظم العز

١. العبودية لله

إذا أدرك الإنسان حقيقة الذات الإلهية، وعرف الله عز وجل حق المعرفة، فإنه سوف يرى أعظم العز في أن يكون عبداً لله عز وجل، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدَ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَوُ﴾^(١) وقد ورد في مناجاة لأمير المؤمنين علي (عليه السلام) أنه قال: إلهي كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً^(٢).

٢. الطاعة لله

إذا كان كل ما في هذا الكون خاضعاً لله عز وجل وطوع إرادته، فإن العز الذي يناله الإنسان لا يكون إلا بالطاعة لمن بيده أمر هذا الكون، ولذا ورد في الروايات بيان طريق نيل العزة من خلال سلوك طريق الطاعة، فعن الإمام الصادق (عليه السلام): من أراد عزاً بلا عشيرة، وغنى بلا مال، وهيبة بلا سلطان فلينتقل من ذلّ معصية الله إلى عز طاعته^(٣).

وعن الإمام علي (عليه السلام): لا عز كالطاعة^(٤).

ثانياً، العزة الموهومة

(١) قاطر: ١٠

(٢) - روضة الواعظين - الفثال النيسابوري - ص ١٠٩.

(٣) - بحار الأنوار - العلامة المحلّسي - ج ٦٨ ص ١٧٨.

(٤) - ميران الحكمة محمد الريشهري ج ٣ ص ١٩٥٨.

١. العزة بالمال والدنيا

يظن الكثير من الناس أن العزيز هو الذي يملك المال والدنيا. يتصرف كما يشاء ويمتنع على الآخرين بالعطايا، وهو مفهوم خاطئ، فلو فقيروا في المال غني في نفسه، بينما صاحب المال يعيش الذل، لحرصه على المال، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سئل: أي ذل أذل؟ قال: الحرص على الدنيا^(١).

كما ورد في روايات أخرى ذم الطمع بالدنيا وأنه موجب للذل، فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : ثمره الطمع ذل الدنيا وشقاء الآخرة^(٢).

٢. العزة بالعشيرة

إن العصبية العمياء قد تقود الإنسان إلى المهالك، فهو يرى في العشيرة عزة وإن كانوا قوماً لا يعرفون الله عز وجل، وهذا ما حاول أن يفتخر به عبد الله بن أبي. في الحادثة التي نزلت فيها الآية. وهذه العصبية المذمومة هي التي تعرضت لها الروايات، فقد ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام . لما سئل عن العصبية: العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم^(٣).

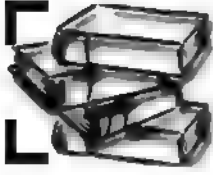
فهذا إبليس أراد أن يعتز بأصله وأنه من نار فوقع في أعظم المعاصي. وقد ورد في رواية عنه عليه السلام . أيضاً : اعترته الحمية، وغلبت عليه الشقوة، وتعزز بخلقه النار، واستوهن خلق الصلصال^(٤).

(١) معاني لاحبار لشبح لصدوق ص ١٩٨

(٢) ميران لحكمه محمد الريشهري ج ٢ ص ١٧٤١

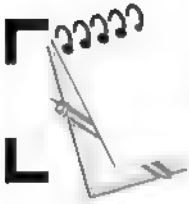
(٣) بحار الانوار العلامة لمجسني ج ٧٠ ص ٢٨٨

(٤) بحار الانوار العلامة لمجسني ج ٧٥ ص ٣٠٣



خلاصة الدرس

١. حبّ الجاه والسلطة مرض قلبي أخطر من حب المال. لأن الإنسان يبذل المال في سبيل السلطة والجاه دون العكس.
٢. آفات حب الرئاسة: ١. التكبر والفخر، ٢. ظلم الناس، ٣. النفاق.
٣. العزة الحقيقية هي العزة التي تكون لله ولرسوله وللمؤمنين، وأعظم العزة تتمثل بأمرين: العبودية لله والطاعة لله.
٤. العزة الموهومة تتمثل بالعزة بالمال والدنيا، والعزة بالعشيرة، وذلك بأن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين.



أسئلة حول الدرس

١. كيف تفسر قول الإمام الصادق عليه السلام في الرواية: يترك الدنيا للدنيا.
٢. كيف يقع من يحب الجاه والرئاسة في النفاق؟
٣. كيف تفسّر كون العبودية لله عز وجل عزاً حقيقياً؟
٤. متى يكون العز بالعشيرة مذموماً؟



للمطالعة

ورد في كتاب بحار الأنوار:

(اعلم أن المتكبر عليه هو الله أو رسله أو ساير الخلق، فهو بهذه الجهة ثلاثة أقسام: الأول التكبر على الله، وهو أفحش أنواعه ولا مثار له إلا الجهل المحض والطفیان، مثل ما كان لنمرود وفرعون . الثاني التكبر على الرسل والأوصياء عليهم السلام كقولهم: «أنؤمن لبشرين مثلنا» «ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون» «وقالوا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً» وهذا قريب من التكبر على الله عز وجل، وإن كان دونه، ولكنه تكبر عن قبول أمر الله . الثالث التكبر على العباد، وذلك بأن يستعظم نفسه، ويستحققر غيره فتأبى نفسه عن الانقياد لهم، وتدعوهم إلى الترفع عليهم، فيزدريهم ويستصغرفهم ويأنف عن مساواتهم، وهذا وإن كان دون الأول والثاني فهو أيضاً عظيم من وجهين: أحدهما أن الكبر والعزة والعظمة لا يليق إلا بالمالك القادر فأما العبد الضعيف الذليل المملوك العاجز الذي لا يقدر على شيء، فمن أين يليق به الكبر؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى «العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته» أي أنه خاص صفتي ولا يليق إلا بي، والمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي، فإذا كان التكبر على عباده لا يليق إلا به، فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه، والوجه الثاني أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله، استنكف عن قبوله... وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين، إذ وصفهم الله تعالى فقال: «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون» وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ كما قال تعالى: «وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم»^(١)).

الدرس الثاني

التسويق والإصرار على التوبة

«لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظننوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم» (١).

قصة الآيات

ثلاثة من المسلمين وهم: «كعب بن مالك» و«مرارة بن ربيع» و«وهلال بن أمية»، امتنعوا عن المسير مع النبي ﷺ والاشتراك في غزوة تبوك، إلا أن ذلك ليس لكونهم جزءاً من المنافقين، بل لكسلهم وتشاغلهم، فلم يمض زمان حتى ندموا. فلما رجع النبي ﷺ من غزوة تبوك حضروا عنده وطلبوا منه العفو عن تقصيرهم، إلا أن النبي ﷺ لم يكلمهم ولو بكلمة واحدة. وأمر المسلمين أيضاً أن لا يكلموهم. لقد عاش هؤلاء محاصرة اجتماعية عجيبة وشديدة، حتى أن أطفالهم ونساءهم

أتوا إلى النبي ﷺ، وطلبوا الإذن منه في أن يفارقوا هؤلاء، إلا أن النبي ﷺ لم يأذن لهم بالمفارقة، لكنه أمرهم أن لا يقتربوا منهم. إن فضاء المدينة بسعته قد ضاق على هؤلاء النفر، واضطروا للتخلص من هذا الذل والفضيحة الكبيرة إلى ترك المدينة والالتجاء إلى قمم الجبال. ومن المسائل التي أثرت تأثيراً روحياً شديداً، وأوجدت صدمة نفسية عنيفة لدى هؤلاء ما رواه كعب بن مالك قال: كنت يوماً جالساً في سوق المدينة وأنا مغموم، فتوجه نحوي رجل مسيحي شامي، فلما عرفني سلمني رسالة من ملك الغساسنة كتب فيها: إذا كان صاحبك قد طردك وأبعدك فالتحق بنا، فتغير حالي وقلت: الويل لي، لقد وصل أمري إلى أن يطمع بي العدو!

خلاصة الأمر: إن عوائل هؤلاء وأصدقاءهم كانوا يأتونهم بالطعام، إلا أنهم كانوا لا يكلمونهم قط. ومضت مدة على هذه الحال وهم يتجرعون ألم الانتظار وترقب في أن تنزل آية تبشرهم بقبول توبتهم. لكن دون جدوى. في هذه الأثناء خطرت على ذهن أحدهم فكرة وقال: إذا كان الناس قد قطعوا علاقتهم بنا واعتزلونا، فلماذا لا يعتزل كل منا صاحبه؟ صحيح أننا مذنبون جميعاً، لكن يجب أن لا يفرح أحدهنا لذنب الآخر. وبالفعل اعتزل بعضهم بعضاً، ولم يتكلموا بكلمة واحدة، ولم يجتمع اثنان منهم في مكان. وأخيراً... وبعد خمسين يوماً من التوبة والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى قبلت توبتهم ونزل القرآن في ذلك^(١).

إياك والتسوية

فرض الله عز وجل على الإنسان تكاليف، ولهذه التكاليف وقتها المحدد، والتخلف عن هذا الوقت موجب لضياح هذا الواجب، ويتحمل الإنسان مسؤولية ذلك. والشيطان قد لا يتمكن من إغواء الإنسان وإيقاعه مباشرة في ترك فعل

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المتبرل الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ج ٦ ص ٢٤٦ ٢٤٧

الواجب، ولكنه يفتح أمامه أبواباً أخرى يوقعه من خلالها في المعصية، ومن ذلك التسويف، فيمنّيه بتأخير الواجب إلى أن ينتهي وقته فيعصي الله كما حصل مع الثلاثة الذين تعرضت لهم الآية.

التسويف ملازم للهلاك

وهكذا يهلك بنو آدم، كهلاك الغريق، إذ يصيبه الهلاك بشكل تدريجي وهو يشعر به ولكنه لا طريق له للخلاص منه، ففي رواية عن الإمام الباقر عليه السلام : إياك والتسويف، فإنه بحر يغرق فيه الهلكى^(١).

كيف نواجه حالة التسويف؟

١. الأجل يأتي بغتة

من الأمور التي يتمكن فيها الإنسان من الغلبة على التسويف أن يلتفت دائماً إلى أن الموت يأتي فجأة، دون سابق إنذار أو تحذير، حيث لا يتمكن بعده من أن يتدارك شيئاً، وهذا ما وردت به الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام : فتدارك ما بقي من عمرك، ولا تقل: غداً وبعد غد، فإنما هلك من كان قبلك بإقامتهم على الآماني والتسويف، حتى أتاهم أمر الله بغتة وهم غافلون^(٢).

فليعلم الإنسان أنه ليس له من ساعاته إلا هذه التي يعيش فيها، ولذا هل يضمن لو سوف فعلاً من الأفعال الواجبة عليه أنه يتمكن من الإتيان به بعد ذلك؟ وقد ورد في الرواية عن رسول الله ﷺ : يا أبا ذر! إياك والتسويف بأملك، فإنك بيومك ولسنت بما بعده، فإن يكن غد لك فكن في الغد كما كنت في اليوم، وإن لم يكن غد لك لم تتدم على ما فرطت في اليوم^(٣).

والإنسان لما كان لا يدري متى يحين أجله، بل يأتيه بغتة دون سابق إنذار، كيف

(١) - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٧٥ ص ١٦٤

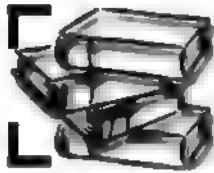
(٢) - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٧٠ ص ٧٥.

(٣) - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٧٤ ص ٧٥.

باب الإجابة، ولا ليفتح لعبد باب التوبة ويغلق عنه باب المغفرة»^(١).

بل إن من كبائر الذنوب اليأس من رحمة الله، لأن الإنسان الذي يقع في المعصية ثم يقع في اليأس من رحمة الله، لا يُقدم على التوبة بعد ذلك، لأنه سوف يرى نفسه غارقاً في الذنوب لا يُمكنه الخروج منها، وذلك خلافاً لمن يقع في المعصية ولا يقع في اليأس، فإنه يبقى أقرب إلى الله عز وجل، وقد ورد في الرواية عن رسول الله ﷺ: الفاجر الراجي لرحمة الله تعالى أقرب منها من العابد المقنط^(٢).

وعن أمير المؤمنين ع في وصيته لولده الحسن ع: أي بني، لا تؤسس مذنباً، فكم من عاكف على ذنبه ختم له بخير، وكم من مقبل على عمله مفسد في آخر عمره، صائر إلى النار، نعوذ بالله منها^(٣).



خلاصة الدرس

. من الأبواب التي يدخل منها الشيطان ليقع الإنسان في المعصية أن يمتنيه بتسوية الإتيان بالواجب.

. نواجه حالة التسوية: ١. بالالتفات إلى أن الأجل يأتي بفتة. ٢. بالطمع بالمغفرة الإلهية.

. على الإنسان الإصرار على التوبة، فإنه باب من أبواب قبول توبته، والحذر من الوقوع في اليأس من رحمة الله.

(١) بحار الأنوار العلامة المجلسي ج ٦ ص ٢٦.

(٢) مبرر الحكمه محمد الرشيد ج ٢ ص ٢٦٢٢.

(٣) بحار الأنوار العلامة المجلسي ج ٧١ ص ٢٢٩.



أسئلة حول الدرس

١. ما هو التسويف؟ وكيف يقع الإنسان فيه؟
٢. كيف يمكن لتذكر الآجل أن يقضي على حالة التسويف؟
٣. ما هو المراد من قوله تعالى: (ثم يتوبون من قريب)؟
٤. لماذا كان اليأس من رحمة الله مؤدياً للهلاك؟



للخطبة

يا نفس: ألا تستحين من التوبيخ والتعنيف، على طول التسويف؟ والذي يدعوك إلى التسويف اليوم هو معك غداً، وإنما تزدادين بطول المدة ردى، وكلما فعلت حوبةً، وعدت نفسك التوبة، وتقولين: إن شئت تبت، أو عمرت أنبت، ويرى جهلك أن الانسان يستبعد الموت مع الشبان، وهذا جهل منك أيتها النفس القرونة، والأمر بالعكس يا مسكينة، لأن الموت في الشباب أكثر، وفي الشيوخ أنزر يا نفس، ومثاله: لو عددت مشايخ بلدتك، وشيب قريتك، لكانوا أقل من عشرة رجال، وتجدين الشبان والأطفال أكثر منهم على كل حال، فإلى أن يموت شيخ يموت ألف من الأطفال والشبان، والغلمان والصبيان، على أن الموت ليس له وقت مخصوص، ولا عليه أن منصوص، بعيد أو قريب، في شباب أو شيب، في شتاء أو صيف، أو ربيع أو خريف، فإذا جهلك بموتك وحب الدنيا، دعيك إلى طول الأمل واتباع الهوى. يا نفس: مثل أهل الدنيا واشتغالهم بأشغالها، ونسيانهم للآخرة وإهمالها، كمثل قوم ركبوا

السفينة في البحر للتجارة، فعدلوا إلى جزيرة لأجل الطهارة، والملاح يناديهم: إياكم وطول المكث، ودوام اللبث، فمن اشتغل منكم بغير الوضوء والصلاة فاتته سفينة النجاة، فالعقلاء منهم لم يمكثوا، وشرعوا في الوضوء والصلاة ولم يلبثوا. فوجدوا الأمن والعافية، وأماكن السفينة خالية، فجلسوا في أظهر الأماكن وأوقفها، وأطيب المواضع وأرفقها.^(١)

(١) محاسبة النفس - الشيخ إبراهيم الكعمي ص ١٧٤ - ١٧٦

الدرس الثالث

حقيقة الإسلام ومراتبه

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١)

قصة الآية

نزلت في الزبير ورجل من الأنصار تخاصما إلى النبي ﷺ في سراح من الحرة كانا يسقيان منه نخلاً لهما، فقال النبي ﷺ: اسقيا زبير ثم أرسل إلى جارك، فغضب الأنصاري، وقال: يا رسول الله إن كان ابن عمك لا تفلون وجه رسول الله حتى عرف أن قد ساءه، ثم قال: يا زبير احبس الماء إلى الجدد أو إلى الكعبين، ثم خل سبيل الماء، فنزلت الآية^(٢).

حقيقة الإسلام

لا شك في أن الكثير منا يفتخر بأنه من المسلمين ويشكر الله على نعمة الهداية إلى الإسلام، ولكن هل تأملنا في حقيقة الإسلام الذي نؤمن به؟ إن حقيقة الإسلام

(١) النساء ٦٥

(٢) السبلان الشيخ الطوسي ج ٣ ص ٢٤٥

على ما ورد في الروايات هو أن يخضع الإنسان خضوعاً تاماً لهذا الدين في كل ما يتعلق به من قريب أو بعيد، دون رفض لشيء ورضاً بشيء آخر، ففي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام : وأما معنى صفة الإسلام فهو الإقرار بجميع الطاعة الظاهر الحكم والأداء له، فإذا أقر المقر بجميع الطاعة في الظاهر من غير العقد عليه بالقلوب فقد استحق اسم الإسلام ومعناه، واستوجب الولاية الظاهرة، وإجازة شهادته، والمواريث، وصار له ما للمسلمين، وعليه ما على المسلمين^(١).

إذاً الإسلام ليس قولاً باللسان، كما أنه ليس بالقلب فقط كما يسعى بعض الناس لتصوير ذلك بترديده لكلمة (المهم ما في القلب)، لأن الإسلام القلبي الذي لا يلحقه العمل لا يكون إسلاماً حقيقياً، وفي الحديث عن الإمام علي عليه السلام : لأنسب الإسلام نسبة لم ينسبه أحد قبلي ولا ينسبه أحد بعدي: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو التصديق، والتصديق هو اليقين، واليقين هو الأداء، والأداء هو العمل^(٢).

فإسلام الإنسان له تعالى هو وصف الانقياد والقبول منه لما يرد عليه من الله سبحانه من حكم تكويني، من قدر وقضاء، أو تشريعي من أمر أو نهى أو غير ذلك^(٣).

فالمسلم الحقيقي الذي يحق له أن يفتخر بإسلامه هو الذي يخضع في حياته كلها لهذا الدين، سواء في علاقته بالله عز وجل، أو في علاقته بسائر الناس، ولذا ورد في الرواية عن رسول الله ﷺ : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده^(٤)، وفي رواية أخرى: المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يشتمه^(٥)، وفي رواية ثالثة: المسلم أخو المسلم، لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله^(٦).

(١) - تحف العقول - ابن شعبة الحراني - ص ٣٢٩.

(٢) - بحار الأنوار العلامة المجلسي ح ٦٥ ص ٣٠٩.

(٣) - تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ١ ص ٣٠١.

(٤) - مكارم الأخلاق لشعخ الطبرسي ص ٢٨.

(٥) - ميراث الحكمة - محمد الرشدي ح ٢ ص ١٢٤٠.

(٦) - المصدر نفسه.

مراتب الإسلام

انطلاقاً من كون الإسلام هو الخضوع والانقياد التام لله عز وجل، والشامل للأمور كافة من تكوينية وتشريعية، فإنّ هذا الإسلام له مراتب:

المرتبة الأولى: من مراتب الإسلام، القبول لطواهر الأوامر والنواهي بتلقي الشهادتين لساناً، سواءً وافقه القلب، أو خالفه، قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(١).

المرتبة الثانية: التسليم والانقياد القلبي للاعتقادات الحقة التفصيلية وما يتبعها من الأعمال الصالحة، قال الله تعالى في وصف المتقين: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾^(٢) وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾^(٣). فمن الإسلام ما يتأخر عن الإيمان محققاً فهو غير المرتبة الأولى من الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(٤). وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٥).

المرتبة الثالثة: هي المرتبة التي يصل فيها الإنسان إلى مرحلة تنقاد فيها سائر القوى البهيمية والسبعية، وبالجملة القوى المائلة إلى هوسات الدنيا وزخارفها الفانية الدائرة، ويصير الإنسان عابداً لله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله

(١) الحجرات: ١٤

(٢) الرحرف: ٦٩

(٣) البقرة ٢٠٨

(٤) الحجرات: ١٥

(٥) الصف: ١٠-١١

يراه، ولم يجد في باطنه وسره ما لا ينقاد إلى أمره ونهيه أو يسخط من قضائه وقدره.

المرتبة الرابعة: التسليم بأن الله له حقيقة الملك الذي لا استقلال دونه لشيء من الأشياء لا ذاتاً ولا صفَةً، ولا فعلاً على ما يليق بكبريائه جلّت كبريائه. فالإنسان - وهو في المرتبة السابقة من التسليم - ربما أخذته العناية الربّانية فأشهدت له أن الملك لله وحده لا يملك شيء سواه لنفسه شيئاً إلا به لا رب سواه، وهذه إفاضة إلهية لا تأثير لإرادة الإنسان فيها، ولعل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(١) إشارة إلى هذه المرتبة من الإسلام.

التسليم والطاعة لأمر رسول الله وخلفائه

كما يكون الإسلام الحقيقي أيضاً بالانقياد والتسليم التام لأمر رسول الله ﷺ وحكمه في الأمور كافة، سواء كان ذلك في موارد الخصومة والنزاع والاختلاف، أو في الأمور العامة من الحرب والقتال والصلح ومقاطعة الكفار وغير ذلك. ومن الطاعة للرسول الطاعة لخلفائه وهم الأئمة المعصومون المنصبون من قبله ولاية على هذه الأمة ولهم ما لرسول الله من منصب الولاية والطاعة. ويأتي من بعدهم الفقهاء المنصبون من قبل الإمام الحجة ﷺ ولاية على الناس فيجب التسليم لهم والانقياد لهم في الطاعة والالتزام.

كيفية التسليم

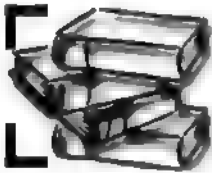
أما كيفية التسليم في هذه الأمور فهي تكون باعتماد الخطوات التالية:

١. التحاكم إليهم لا إلى غيرهم، فإذا وقع النزاع أو الخصام فالتحاكم ينبغي أن يكون لرسول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام من بعده ثم للفقهاء المنصبين من قبل

الأنمة، لا إلى حكام الجور ودول الكفر، وذلك لعدم إمكان الجمع بين الكفر بالطاغوت والتحاكم إليه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١).

٢. أن لا يشعروا بأي انزعاج أو حرج في نفوسهم تجاه أحكام الرسول ﷺ وأقضيته العادلة التي هي - في الحقيقة - نفس الأوامر الإلهية، ولا يسيئوا الظن بهذه الأحكام.

٣. أن يطبقوا تلك الأحكام - في مرحلة تنفيذها - تطبيقاً كاملاً ويسلموا أمام الحق تسليمًا مطلقاً (٢)، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية أنه قال: (لو أن قوماً عبدوا الله وحده لا شريك له وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وحجوا البيت وصاموا شهر رمضان ثم قالوا لشيء صنعه الله أو صنعه رسوله ﷺ: لم صنع هكذا وكذا، ولو صنع خلاف الذي صنع، أو وجدوا ذلك في قلوبهم لكانوا بذلك مشركين، ثم تلا هذه الآية (الحاضرة) ثم قال عليه السلام: عليكم بالتسليم) (٣).



خلاصة الدرس

حقيقة الإسلام هي الخضوع التام لأحكام الدين وتعاليمه، والإسلام الحقيقي هو الإسلام الذي يأتي فيه بعد الاعتقاد بالعمل.

(١) النساء: ٦٠

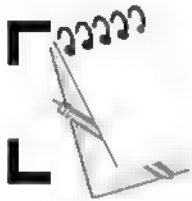
(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله لمبرل، الشيخ مكارم الشمر دى، ج ٢، ص ٢١٠

(٣) الكافي، الشيخ الكليني ج ١ ص ٣٩٠

. مراتب الإسلام أربعة: ١. القبول بظواهر الأوامر والنواهي. ٢. التسليم والانقياد القلبي. ٣. الانقياد التام بكافة الجوارح والجوانح. ٤. الاعتقاد بأن المالك الوحيد الحقيقي في هذا الكون هو الله عز وجل.

. من الإسلام التسليم لرسول الله وللأئمة من ولده ثم للفقهاء المنصبين من قبل الإمام الحجة عليه السلام.

. التسليم لهؤلاء يكون بالتحاكم إليهم لا إلى غيرهم. والانقياد القلبي لحكمهم وقضائهم. وتطبيق الأحكام الصادرة عنهم.



أسئلة حول الدرس

١. ما هي حقيقة الإسلام؟ ومن هو المسلم الحقيقي؟
٢. ما هي مراتب الإسلام؟
٣. كيف يكون التسليم للرسول والأئمة والفقهاء؟
٤. لماذا لا يجتمع التسليم مع التحاكم إلى الطاغوت؟



للمطالعة

روح الإسلام التسليم أمام الله. لا شك أن استقلال الإنسان الفكري والروحي لا يسمح له أن يستسلم لأحد بدون قيد أو شرط. لأنه إنسان مثله. ومن الممكن أن تكون له أخطاء واشتباهاات في المسائل. أما إذا انتهت المسألة إلى الله العالم والحكيم. والنبى الذى يتحدث عنه ويسير بأمره. فإن عدم التسليم المطلق دليل

على الضلال والانحراف، حيث لا يوجد أدنى اشتباه في أوامره سبحانه، إضافة إلى أن أمره حافظ لمنافع الإنسان نفسه، ولا يعود شيء على ذاته المقدسة، فهل يوجد إنسان عاقل يسحق مصالحة برجله بعد تشخيص هذه الحقيقة؟ ومضافاً إلى ذلك فإننا منه تعالى، وكل ما لدينا منه، ولا يمكن أن يكون لنا أمر وقرار إلا التسليم لإرادته وأمره، ولذلك ترى بين دفتي القرآن آيات كثيرة تشير إلى هذه المسألة: فمرة تقول آية: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾، وتقول أخرى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾، ويقول القرآن في موضع آخر: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾. إن «الإسلام» أخذ من مادة «التسليم»، وهو يشير إلى هذه الحقيقة، وبناء على هذا فإن كل إنسان يتمتع بروح الإسلام بمقدار تسليمه لله سبحانه. ينقسم الناس عدة أقسام من هذه الناحية: فقسم يسلمون لأمر الله في الموارد التي تنفعهم فقط، وهؤلاء في الحقيقة مشركون انتحلوا اسم الإسلام، وعملهم تجزئة لأحكام الله تعالى، فهم مصداق: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، فإيمانهم في الحقيقة إيمان بمصالحهم لا بالله تعالى، وآخرون جعلوا إرادتهم تبعاً لإرادة الله، وإذا تعارضت منافعهم الزائلة مع أمر الله سبحانه، فإنهم يفضون الطرف عنها ويسلمون لأمر الله، وهؤلاء هم المؤمنون والمسلمون الحقيقيون. والقسم الثالث أسمى من هؤلاء، فهم لا يريدون إلا ما أراد الله، وليس في قلوبهم إلا ما يشاؤه سبحانه، فقد بلغوا مرتبةً من التسامي لا يحبون معها إلا ما يحبه الله، ولا ييغضون إلا ما أبغضه الله عز وجل. هؤلاء هم الخاصة والمخلصون والمقربون لديه، فقد صبغ التوحيد كل وجودهم، وغرقوا في حبه، وفتوا في جماله.^(١)

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ج ١٣ ص ٢٦٦ - ٢٦٨.

الدرس الرابع

بلاء النعمة

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سَرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾^(١).

قصة الآيات

ثعلبة بن حاطب وهو من الأنصار قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالا، فقال النبي ﷺ: ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكر خير من كثير لا تطيقه. ولكن ثعلبة أصر على النبي في أن يدعو له وأعطى رسول الله ﷺ عهداً قال فيه: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فوالذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه، فدعا له: اللهم ارزقه مالا، اللهم ارزق ثعلبة مالا، فاتخذ غنماً فتمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة، فتحنى عن المنزل فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في الجماعة ويترك ما سواهما، ثم

(١) التوبة الآيات من ٧٥ حتى ٧٨

نمت فكثرت حتى ترك الصلوات الا الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة، وطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة يسألهم عن الاخبار، فسأل رسول الله ﷺ عنه فقال: ما فعل ثعلبة؟ فقالوا: يا رسول الله، اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة، وأخبروه بأمره فقال: يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة. قال: وأنزل الله - تبارك وتعالى: خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها، وأنزل الله عليه فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة، وأمرهما ان يخرجاً فيأخذا الصدقة، وقال لهما مرا بثعلبة وبفلان رجل من بني سليم، فخذوا صدقاتهما، فخرجتا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة، وأقرأه كتاب رسول الله فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، ما أدري ما هذه؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا الي.

فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرا بثعلبة، فقال: أروني كتابكما، فنظر فيه فقال: ما هذا إلا أخت الجزية، انطلقا حتى أرى رأيي. فانطلقا حتى أتيا النبي فلما رآهما قال: يا ويح ثعلبة ما فعل ثعلبة؟ فأخبراه بالذي صنع ثعلبة، فانزل الله فيه الآيات المذكورة وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فانطلق حتى أتى ثعلبة فقال: قد انزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي فسأله أن يقبل منه صدقته فقال: إن الله قد منعني أن أقبل منك صدقتك، فجعل يحثو على رأسه التراب، وقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً.

والذي يظهر من سبب النزول المذكور ومن مضمون الآيات أن هذا الشخص لم يكن من المنافقين في بداية الأمر، لكنه لهذه الأعمال سار في ركا بهم^(١).

الدروس المستفادة من القصة

١. الابتلاء يكون في الغنى كما يكون في الفقر

(١) الأمش في تفسير كتاب الله المنزل الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ج ٦ ص ١٢٢، بحار الأنوار العلامة المجلسي ج

يظن الكثير من الناس أن الابتلاء لا يكون إلا بالمشقات والفقر، مع أن القرآن الكريم نصّ على أن الابتلاء كما يكون بالشر قد يكون بالخير ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾^(١).

فإن الله عز وجل واختباراً منه لهذا الإنسان كما يختبره في الشدائد والمكاره يختبره بالرخاء والنعم، لينظر إلى أن هذا الإنسان هل يبقى عارفاً بالله عز وجل وفضله أو يصل إلى الإنكار؟ وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير هذه الآية: ﴿نَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً...﴾: فالخير الصحة والغنى، والشر المرض والفقر، ابتلاءً واختباراً^(٢).

ومن هنا ينبغي على أهل الغنى أن يعيشوا الحذر دائماً من الغفلة عن الله، وقد ورد في رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام: إذا رأيت ربك يوالي عليك البلاء فاشكره، إذا رأيت ربك يتابع عليك النعم فاحذره^(٣).

وهذه النعم تبدأ بالازدياد كلما ابتدأ الإنسان بالابتعاد عن الله عز وجل شيئاً فشيئاً، وهذا ما نشهده في قصة ثعلبة، فإذا به يتخلف عن حضور صلاة الجماعة، فزاد رزقه، فإذا به يتخلف عن صلاة الجمعة وهكذا، وقد ورد في الرواية بيان هذه الحالة، فعن الإمام الصادق عليه السلام: إذا أراد الله عز وجل بعبد خيراً فأذنب ذنباً تبعه بنعمة ويذكره الاستغفار، وإذا أراد الله عز وجل بعبد شراً فأذنب ذنباً تبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى به، وهو قول الله عز وجل: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بالنعم عند المعاصي^(٤).

٢. الإيمان المستعار

فإنسان قد يكون عارفاً بحق الله عز وجل مؤدياً له أيام الشدة والمحنة ولكنه

(١) الانبياء، ٢٥.

(٢) - بحار الأنوار العلامة المجلسي ج ٨١ ص ٢٠٩.

(٣) - غرر الحكم، ٤٠٨٢.

(٤) - بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٦٤ ص ٢٢٩.

في أيام الرخاء والدعة ينسى الله ويقصّر في حق الله عز وجل، وهذا معنى كون الرخاء من البلاء، وقد ورد في رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام : في قلب الأحوال علم جواهر الرجال، والآيات توضح لك السرائر الكامنة^(١).

وقد يعيش الإنسان حالة من الإيمان ولكنه لفقره لم يُبْتَلْ بالتكاليف ولكن إيمانه الحقيقي يظهر عندما يمتلك المال وتأتي التكاليف الإلهية تأمره ببذل المال فيكتشف أن إيمانه مجرد لقلقة لسان وأنه إيمان مستعار غير حقيقي، بل الإيمان الحقيقي هو الذي يقترن بالعمل الصالح، فقد ورد عن رسول الله ﷺ : الإيمان والعمل أخوان شريكان في قرن، لا يقبل الله أحدهما إلا بصاحبه^(٢).

٣. مضار الطمع بالمال

المال، هو أكبر حبائل إبليس التي يضعها أمام الإنسان ليوقعه في شركه. ولا مشكلة في أن يطلب الإنسان المال ولا في أن يسعى لاكتسابه، بل حث الإسلام على طلب الرزق والاستغناء عما في أيدي الناس، ولكن الفتنة في أن يحرص الإنسان على المال وأن يمتلكه هذا المال بمعنى أن يصبح هو المعيار في القبول والرفض والفرح والسرور، فقد ورد في رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام : لا تفرح بالغناء والرخاء، ولا تغتم بالفقر والبلاء^(٣).

ومن الابتلاءات الإلهية على أصحاب النعم والأموال التكاليف التي أمرهم الله عز وجل من خلالها بإخراج شيء من أموالهم مما يعرف بالحقوق، من خمس وزكاة وصدقة، وقد ورد وصف هذه التكاليف بالابتلاءات في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام : ما بلى الله العباد بشيء أشدّ عليهم من إخراج الدرهم^(٤).

وهذا ما ابتلى الله به ثعلبة بن حاطب الأنصاري، فقد جاءه الأمر بإخراج حق

(١) - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٧٧ ص ٢٨٦.

(٢) - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٦٦ ص ٦٦.

(٣) - ميزان الحكمة - محمد الرشدي - ج ١ ص ٢٠٢.

(٤) - وسائل الشيعة (آل البيت) - الحر العاملي - ج ٩ ص ١٩.

اللَّهُ مِنْ مَالِهِ وَلَكِنْ طَمَعَهُ بِالْمَالِ أَدَّى بِهِ إِلَى أَنْ يَرْفُضَ الْأَدَاءَ وَإِلَى أَنْ يُعْتَبَرَ ذَلِكَ نَوْعاً مِنَ الْقَرْضِ بِالْقُوَّةِ وَنَوْعاً مِنَ الْمَذَلَّةِ وَالْإِنْتِقَامِ. وَهَذَا مَا قَدْ نَجَدَ لَهُ مَصَادِيقٌ فِي زَمَانِنَا كَمَثَلِ مَنْ يَتَمَسَّكُ بِالْحَجَجِ الْوَاهِيَةِ لِرَفْضِ إِخْرَاجِ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ فِي مَالِهِ.

٤. الآثار التكوينية للمعصية

تتحدث الآيات الكريمة عن بعض الآثار التكوينية التي تترتب على التخلف عن أداء التكاليف، ومن هذه الآثار ما عبّرت عنه الآية الكريمة بالنفاق إلى يوم القيامة.

إن العلاقة بين الكثير من الذنوب والصفات السيئة، بل وحتى بين الكفر والنفاق، هي نسبة وعلاقة العلة والمعلول، لأن الجملة الأنفة الذكر تبين وتقول بصراحة: إن سبب النفاق الذي نبت في قلوبهم وحرفهم عن الجادة هو بخلهم ونقضهم لعهودهم، وكذلك الذنوب والمخالفات الأخرى التي ارتكبوها، ولهذا فإننا نقرأ: الكبائر في بعض الأحيان تكون سبباً في أن يموت الإنسان وهو غير مؤمن، إذ ينسلخ منه روح الإيمان بسببها^(١).

فعن الإمام الصادق عليه السلام : إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل، وإن العمل السيئ أسرع في صاحبه من السكين في اللحم^(٢)

بل إن بقاء النعمة واستمرارها يتوقف على الطاعة وعدم معصية الله، فقد ورد في الرواية عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه عليه السلام أنه كان يقول: إن الله قضى قضاءً حتماً ألا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النعمة^(٣).

(١) الامثل في تفسير كتاب الله المنزل الشرح باصبر مكارم الشيرازي ج ٦ ص ١٣٥

(٢) الكافي للشيخ الكليني ج ٢ ص ٢٧٢

(٣) الكافي للشيخ الكليني ج ٢ ص ٢١٣

ولو أن رجلاً حمل الزكاة فأعطاها علانية لم يكن عليه في ذلك عيب وذلك أن الله عز وجل فرض في أموال الأغنياء للفقراء مما يكتفون به. ولو علم أن الذي فرض لهم لا يكفيهم لزادهم. وإنما يؤتى الفقراء فيما أوتوا من منع من منعهم حقوقهم لا من الفريضة.

وعن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله أن علة الزكاة من أجل قوت الفقراء وتحسين أموال الأغنياء لأن الله تعالى كلف أهل الصحة القيام بشأن أهل الزمانة من البلوى كما قال عز وجل: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ في أموالكم إخراج الزكاة وفي أنفسكم توطين النفس على الصبر مع ما في ذلك من أداء شكر نعم الله عز وجل والطمع في الزيادة مع ما فيه من الزيادة والرافة والرحمة لأهل الضعف والعطف على أهل المسكنة والحث لهم على المساواة وتقوية الفقراء والمعونة لهم على أمر الدين. وهي عظة لأهل الغنى عبرة لهم ليستدلوا على فقر الآخرة بهم، وما لهم من الحث في ذلك على الشكر لله تبارك وتعالى لما خولهم وأعطاهم والدعاء والتضرع والخوف أن يصيروا مثلهم في أمور كثيرة في أداء الزكاة والصدقات وصلة الأرحام واصطناع المعروف. ^(١)

الدرس الخامس

كتمان السر

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَأَيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(١)

قصة الآية

أمر رسول الله ﷺ المسلمين بتجهيز أنفسهم لفتح مكة، وكانت هناك امرأة اسمها سارة، تتردد على مكة، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة وكتب معها كتاباً إلى أهل مكة وأعطاهما عشرة دنانير وكساها برداً على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة، وكتب في الكتاب: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة إن رسول الله يريدكم فخذوا حذرکم. فخرجت سارة، ونزل جبرائيل فأخبر النبي ﷺ بما فعل، فبعث رسول الله ﷺ علياً وعماراً وعمر والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود وأبا مرثد وكانوا كلهم فرساناً وقال لهم: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب

إلى المشركين فخذوه منها، فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، فنحوها وقتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً، فهموا بالرجوع، فقال علي عليه السلام: واللّٰه ما كُذِّبنا ولا كُذِّبنا، وسل سيفه وقال: أخرجي الكتاب وإلا واللّٰه لأضربن عنقك. فلما رأت الجد أخرجته من ذؤابتها، فرجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إلى حاطب فأتاه، فقال له: هل تعرف الكتاب؟ قال: نعم، قال: فما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول الله واللّٰه ما كُفرت منذ أسلمت ولا غشيتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته وكنت عريراً فيهم (أي غريباً) وكان أهلي بين ظهرانيهم فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن اللّٰه ينزل بهم بأسه وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدقه رسول الله ﷺ وعذره ^(١).

أهمية كتمان السر

لقد حثت التعاليم الإسلامية الإنسان على التحلي ببعض الصفات الحسنة والعمل على أن تكون سلوكاً حياتياً لديه، لما في ذلك من صلاح حياته، ولما تعود به من نفع له في هذه الدنيا. ومن هذه الصفات الاستعانة على قضاء حوائجه والوصول إلى مآربه من خلال كتمان السر، وقد ورد في الرواية عن رسول الله ﷺ: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ^(٢).

ولكن لا يقتصر أمر كتمان السر على الأمور الشخصية الخاصة بل إن ذلك يتناول أيضاً المسائل العامة التي ترتبط بالمجتمع وبالأمّة التي يعيش فيها الإنسان.

ولذا سوف نتحدث عن كلا الأمرين

أولاً: كتمان السر في الأمور العامة.

إن من أخطر ما يقع به الإنسان أن يفضح أمراً يتعلّق بالمجتمع الإسلامي عموماً،

(١) - الأمثل في تفسير كتاب الله لعنزل - الشيخ ناصر مكارم الشيرازي - ج ١٨ - ص ٢٣٥ - ٢٣٦

(٢) - ميزان الحكمة محمد الريشهري ج ١ ص ٦٢٠

وذلك كما في أمور الحرب والقتال، أو في المصالح العامة التي ترتبط بالمسلمين من اقتصاد، ومال وتجارة وغير ذلك، بل حتى فيما يرتبط ببعض معارف الدين، مما قد يقوم غير المؤمنين بالتشنيع على الإسلام فيه ورد الحث على الكتمان كما في بعض معارف أهل البيت عليهم السلام. فقد ورد في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: كتمان سرنا جهاد في سبيل الله^(١). وعن الإمام الباقر عليه السلام: والله إن أحب أصحابي إلي أروعهم وأفقههم وأكتمهم لحديثنا^(٢).

وما يوقع الإنسان في هذا أحد أمرين:

١. فلتات اللسان (زلة اللسان)

يعثر الإنسان في حديثه أحياناً فينطق لسانه بأمر يؤدي إلى أن يفضح أمراً ينبغي ستره، فإذا كان ذلك الأمر مما يتعلق بمصالح المسلمين العامة كان الضرر أكبر، وقد ورد الحث على حفظ الإنسان لسانه، ففي رواية عن الإمام الباقر عليه السلام: إن هذا اللسان مفتاح كل خير وشر، فينبغي للمؤمن أن يختم على لسانه كما يختم على ذهبه وفضته^(٣).

وهذا ما يُطلق عليه الناس تسمية زلة اللسان، فلا يكون المتكلم قاصداً لأن يفضح أمراً من الأمور، ولكن هذه الزلة تكون قاتلة أحياناً ولذا ورد في الرواية عن الإمام علي عليه السلام: زلة اللسان أشد من جرح السنان^(٤).

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام يبين فيها الخطر العظيم لزلات اللسان: المرء يعثر برجله فيبرأ، ويعثر بلسانه فيقطع رأسه. إحفظ لسانك فإن الكلمة أسيرة في وثاق الرجل، فإن أطلقها صار أسيراً في وثاقها^(٥).

(١) بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ١٢ ص ٧٠

(٢) - الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٣) بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٧٥ ص ١٧٨

(٤) - ميراث الحكمة - محمد الرشدي - ج ٤ ص ٢٧٧٩ .

(٥) بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٦٨ ص ٢٩٢ .

والأمر يتجاوز مجرد ما يقع في الدنيا إلى المسؤولية والعقوبة في الآخرة، ففي رواية عن الإمام الباقر عليه السلام : يحشر العبد يوم القيامة وما ندى دماً فيدفع إليه شبه المحجمة أو فوق ذلك، فيقال له: هذا سهمك من دم فلان، فيقول: يا رب، إنك لتعلم أنك قبضتني وما سفكت دماً، فيقول: بلى، سمعت من فلان رواية كذا وكذا، فرويتها عليه، فنقلت حتى صارت إلى فلان الجبار فقتله عليها، وهذا سهمك من دمه^(١).

ويفسّر الإمام الصادق عليه السلام الآية الكريمة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فيقول: واللّه ما قتلوهم بأيديهم ولا ضربوهم بأسياقهم، ولكنهم سمعوا أحاديثهم فأذاعوها فأخذوا عليها فقتلوا^(٢).

٢. المودة مع أعداء الدين

إنّ ممّا حذر منه الإسلام بشدّة، ممّا يُوقع الإنسان في إفشائه لسر يتعلّق بالمسلمين، أن تكون له مودة مع أحد من أعداء الدين، لمصالح تتعلق به وترتبط مع ذلك العدو الذي يكيد بالمسلمين، وهذا هو الذي وقع فيه حاطب بن أبي بلتعة. وتؤكد الآية الكريمة أن هذه المودة لن تكون إلا من طرف واحد، وإلا فإنّ هؤلاء لن يظهروا لكم المودة إطلاقاً.

عن الإمام علي عليه السلام : «إياك أن تحب أعداء الله، أو تصفي ودك لغير أولياء الله، فإن من أحب قوماً حشر معهم»^(٣).

ثانياً: كتمان السر في الأمور الخاصة.

كما ينبغي للمرء أن يسعى ليكتّم سرّه في الأمور الخاصة. ويترتب على ذلك فوائد عديدة أشارت إليها الروايات:

(١) الكافي - لشيخ الكليني - ج ٢ ص ٣٧٠.

(٢) الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ ص ٣٧١.

(٣) ميرن الحكمة - محمد الريشهري - ج ١ ص ٤٩٧.

أ. أن يملك الإنسان أمره

فإذا نوى الإنسان أمراً وأبقاه سراً عند نفسه أمكن له أن يعدل في رأيه أو أن يسعى به دون أن يعيقه أحد، فعن الإمام علي عليه السلام: من كتم سره كانت الخيرة في يده^(١)، وعنه عليه السلام: سرّك أسيرك فإن أفشيتَه صرت أسيره^(٢).

ب. أن ينجح الإنسان في أمره

الحياة بطبيعتها ساحة للتنافس، يسعى كل إنسان لينال منها، ومن الطبيعي أن يفتنم كل فرصة تمر أمامه، فإذا كانت أمامك فرصة تنال فيها خيراً فاستعن على الوصول إلى ذلك بالكتمان، فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام: أنجح الأمور ما أحاط به الكتمان^(٣)، وعن الإمام الجواد عليه السلام: إظهار الشيء قبل أن يستحكم مفسدة له^(٤).

ج. الحذر من الخيانة

إذا أودعت سرّك عند غيرك قد يخونك، فقد ورد في الرواية عن الإمام علي عليه السلام: انفراد بسرّك ولا تودعه حازماً فيزل ولا جاهلاً فيخون^(٥). والخيانة قد تصدر حتى عن شخص صديق لك، ففي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: لا تطلع صديقك من سرّك إلا على ما لو أطلعت عليه عدوك لم يضرّك، فإن الصديق قد يكون عدواً يوماً ما^(٦).

(١) - نهج البلاغة، الإمام علي - الحكمة رقم ١٦٢.

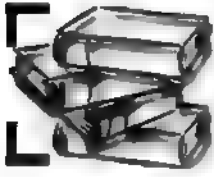
(٢) - ميزان الحكمة محمد الريشهري ج ٢ ص ١٢٨٢.

(٣) - ميزان الحكمة محمد الريشهري ج ٢ ص ١٢٨٢.

(٤) - بحار الأنوار العلامة المجلسي ج ٧٢ ص ٧١.

(٥) - شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد - ج ٢٠ ص ٢٢٧.

(٦) - ميزان الحكمة محمد الريشهري ج ٢ ص ١٢٨٣.



خلاصة الدرس

- ١. كتمان السر سبب لقضاء الحوائج، والوصول إلى الغايات، سواء فيما يتعلق بالفرد أو بالمجتمع.
- ٢. يجب على الإنسان حفظ الأسرار العامة التي ترتبط بمصالح المجتمع الإسلامي.
- ٣. الأسباب التي توجب إفشاء السر إما زلات اللسان، فعلى الإنسان حفظ لسانه، أو المودة للمشاركين، فعلى الإنسان أن يبرأ منهم.
- ٤. لكتمان السر في الأمور الشخصية فوائد عديدة: أن يملك الإنسان أمره، وينجح فيه، ويحذر من الخيانة.



أسئلة حول الدرس

١. كيف تفسّر قول الإمام الصادق عليه السلام: كتمان سرنا جهاد في سبيل الله؟
٢. ما هي أعظم مخاطر زلة اللسان؟
٣. كيف يضمن الإنسان النجاح في عمله؟
٤. لماذا وردت النصيحة من الإمام علي عليه السلام بكتمان السر حتى عن الصديق؟



للمطالعة

إفشاء السر: إذاعته، وهو أعم من كشف العيب، إذ السر قد يكون عيباً وقد لا يكون بعب، ولكن في إفشائه إيذاء وإهانة بحق الأصدقاء أو غيرهم من المسلمين، وهو من رذائل قوة الغضب إن كان منشأ العداوة، ومن رذائل قوة الشهوة إن كان منشأ تصور نفع مالي، أو مجرد اهتزاز النفس بذلك لخباثتها، وهو مذموم منهى عنه، قال رسول الله ﷺ: «إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت، فهي أمانة» وقال ﷺ: «الحديث بينكم أمانة»، وورد: «إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك»، وقال عبد الله بن سنان للصادق عليه السلام: «عورة المؤمن على المؤمن حرام؟ فقال: نعم ! قلت: يعني سفلته؟ قال: ليس حيث تذهب، إنما هو إذاعة سره».

كتمان السر: ضد إفشاء السر كتمان، وهو من الأفعال المحمودة، وقد أمر به في الأخبار. قال رسول الله ﷺ: «طوبى لعبد نومة، عرفه الله ولم يعرفه الناس، أولئك مصاييح الهدى ويناييح العلم ينجلي عنهم كل فتنة مظلمة ليسوا بالمذاييع البذر، ولا الجفأة المرائين». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «قولوا الخير تعرفوا به، واعملوا الخير تكونوا من أهله، ولا تكونوا عجلأ مذاييع، فإن خياركم الذين إذا نظر إليهم ذكر الله، وشاركم المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، المبتغون للبراء المعاييب»^(١).

الدرس السادس

الخيانة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. (١)

قصة الآيات

ورد في الرواية عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام في بيان سبب نزول الآيات أن رسول الله ﷺ حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله ﷺ الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بنى النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحات من أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله وولده كانت عندهم، فبعثه رسول الله ﷺ فأتاهم فقالوا: ما ترى يا أبا لبابة؟ أنزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه: إنه الذبح

(١) الاموال الآيات من ٢٦ إلى ٢٨.

فلا تفعلوا، فأتاه جبرائيل فأخبره بذلك . قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدمي عن مكانهما حتى عرفت أنني قد خنت الله ورسوله فنزلت الآيات فيه فلما نزلت شد نفسه على سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شرباً حتى خر مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه فقبل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك، فقال: لا والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله هو الذي يحلني، فجاءه وحله بيده . ثم قال أبو لبابة: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنزع من مالي، فقال النبي ﷺ: يجزيك الثلث ان تصدق به^(١).

أنواع الأمانات وكيف تكون الخيانة

النوع الأول: من الأمانة ما هو أمانة الله سبحانه عند الناس كأحكامه المشروعة من عنده.

النوع الثاني: منها ما هو أمانة الرسول ﷺ وهي عبارة عن السنن التي أمر بها وسيرته في حياته العملية.

وأما خيانة هذين النوعين فتتحقق بمعصية الله عز وجل وبالتخلف عن العمل بسنة رسول الله ﷺ.

وقد ورد في الرواية عن أبي جعفر عليه السلام في تفسير الآية الكريمة: خيانة الله والرسول معصيتهما^(٢).

وفي رواية أخرى عن الإمام علي عليه السلام: لكنه سبحانه جعل حقه على العباد أن يطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلاً منه^(٣).

فإذا كانت الطاعة لله عز وجل هي من حقوق الله، فالمعصية خيانة لهذا

(١). تفسير الميرزا لسد الطغيات ج ٩ ص ٦٤.

(٢). بحار الأنوار العلامة لمحيي ج ٢٢ ص ٦٧.

(٣). الكافي الشيخ الكليني ج ٨ ص ٢٥٣.

الحق.

النوع الثالث: ما هو أمانة الناس بعضهم عند بعض كالأمانات من أموالهم أو أسرارهم.

النوع الرابع: منها ما يشترك فيه الله ورسوله والمؤمنون، وهي الأمور التي أمر بها الله سبحانه وأجرها الرسول وينتفع بها الناس ويقوم بها صلب مجتمعهم كالأسرار السياسية والمقاصد الحربية التي تضيع بإفشائها آمال الدين وتضل بإذاعتها مساعي الحكومة الإسلامية فيبطل به حق الله ورسوله ويعود ضرره إلى عامة المؤمنين. فهذا النوع من الأمانة خيانتها خيانة لله ورسوله وللمؤمنين، فالخائن بهذه الخيانة من المؤمنين يخون الله والرسول وهو يعلم أن هذه الأمانة التي يخونها أمانة لنفسه ولسائر إخوانه المؤمنين وهو يخون أمانة نفسه، ولن يقدم عاقل على الخيانة لأمانة نفسه^(١).

ومن هنا تكون المسؤولية عظيمة على من يتولى أمور الناس وأمور المسلمين مهما كانت المسؤولية التي يتولاها صغيرة أو محدودة.

فقد ورد عن النبي ﷺ: إن الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه أحفظ ذلك أم ضيعه حتى يسأل الرجل عن أهل بيته^(٢).

من مصاديق الخيانة

١. خيانة العهد والميثاق

من أنواع الخيانات التي تعم بها البلوى بين الناس خيانة العهد والميثاق، وهذا العهد إما أن يكون مع الله عز وجل، كما لو عاهد الله على أن يترك أمراً أو يقوم بأمر ولكنه تخلف عن ذلك، فإن الوفاء بالعهد لازم والنكث به خيانة. بل من أعظم الخيانة هو أن ينقض الإنسان عهد الطاعة هذا لله عز وجل فيطيع الشيطان. قال تعالى: ﴿

(١) - تفسير الميران - السيد الطنطا باني - ج ٩ ص ٥٥.

(٢) - ميرن الحكمة محمد الريشهري ج ٢ ص ١٢١٢

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ^(١) .

وإما أن يكون مع سائر الناس سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، وسواء كان على مستوى شخصي فردي أو على مستوى طائفة من الناس وفرقة منهم. وقد ورد في عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الأشتر قال: وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة، أو ألبسته منك ذمة، فحط عهدك بالوفاء، وارع ذمتك بالأمانة. واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت، فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعاً - مع تفرق أهوائهم، وتشتت آرائهم - من تعظيم الوفاء بالعهود^(٢).

٢. خيانة الأمانات المادية

مما أكدت عليه التعاليم الإسلامية الحرص على أداء الأمانة التي يحملها الإنسان من مال غيره، فعن الإمام الصادق عليه السلام: يجبل المؤمن على كل طبيعة إلا الخيانة والكذب^(٣).

بل وحذرت الروايات من الآثار الدنيوية لخيانة الأمانة المادية، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: لو أن أحدكم هرب من رزقه لتبعه حتى يدركه كما أنه إن هرب من أجله تبعه حتى يدركه، من خان خيانة حسبت عليه من رزقه وكتب عليه وزرها^(٤).

ومظاهر خيانة الأمانات التي يأتئك الناس عليها كثيرة، فقد يضع أحدهم معك مالاً لتتجر له به على أن يكون الربح بينك وبينه، فلا تقوم بإعطائه الربح كاملاً، بل تنتقص منه وتحتال لذلك بشتى الوسائل والطرق، وهذا نوع من أنواع الخيانة.

٣. خيانة الحقوق

(١) يس ١٠

(٢) نهج السلاعة، عهد الإمام لمالك الأشتر.

(٣) سحر لائوار - العلامة لمحمدي - ج ٧٢ ص ١٧٢ .

(٤) لكافي الشيخ الكليني ج ٥ ص ٣٠٤

مما ورد في الروايات وصفه بأنه من الخيانة التقصير في أداء الحقوق. ولكي نوضح صورة الخيانة في هذا المجال لنلاحظ العناوين التالية:

. عدم كتمان السر

قد يضع أحد إخوانك سره عندك، فخيانتته تكون بإفشائه بين الناس، مهما كان هذا السرّ صغيراً. بل حتّى لو أخبرك بأمر ولم يطلب منك أن تخفيه ولكنك كنت تعلم أنه يكره إظهاره. فقد ورد في الرواية عن النبي ﷺ: المجالس بالأمانة، وإفشاء سر أخيك خيانة، فاجتنب ذلك^(١).

. التقصير في أداء حق أخيك

إذا انعقدت الأخوة بين المؤمنين فلا بد من الوفاء بهذا العقد، وكل ما يكون تقصيراً في أداء حق الأخوة يكون نوعاً من الخيانة.

فقد ورد في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: أيما رجل من أصحابنا استعان به رجل من إخوانه في حاجة فلم يبالغ فيها بكل جهده فقد خان الله ورسوله والمؤمنين^(٢).

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام - لأبي هارون المكفوف -: يا أبا هارون، إن الله تبارك وتعالى آلى على نفسه أن لا يجاوره خائن، قال: قلت: وما الخائن؟ قال: من ادخر عن مؤمن درهماً أو حبس عنه شيئاً من أمر الدنيا^(٣).

. عدم النصيحة للمستشير

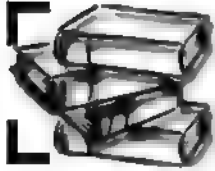
قد يلجأ أحدهم إليك ليسألك عن أمر من الأمور، ويطلب منك أن تنصحه وترشده إلى ما فيه الخير له، وهو يأمل منك أن تكون دليلاً له ينقذه من الوقوع في الهلكات. ولكنك لا تخلص له النصيحة أو ترشده إلى غير ما فيه خير ومصلاحه، وهذا من

(١) - مكارم الاخلاق - الشيخ الطبرسي - ص ٤٧٠.

(٢) - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٧٢ ص ١٧٥.

(٣) - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٧٢ ص ١٧٢.

مصاديق الخيانة. فقد ورد في الرواية عن الإمام علي عليه السلام : خيانة المستسلم والمستشير من أفضع الأمور، وأعظم الشرور، وموجب عذاب السعير^(١).



خلاصة الدرس

- ١. أمانة الله عز وجل عبارة عن الالتزام بأحكامه، وأمانة الرسول عليه السلام الالتزام بسنته، وأمانة المؤمنين من الأموال والأسرار، وأمانة المجتمع المسلم فيما يرتبط بمصالحهم.
- ٢. من مصاديق الخيانة: أ. خيانة العهد والميثاق سواء كان العهد مع الله عز وجل أو مع الناس. ب. خيانة الأمانات المادية التي يودعها الإنسان عند الآخرين. ج. خيانة الحقوق.
- ٣. من خيانة الحقوق: عدم كتمان السر، التقصير في أداء حق الأخ، عدم النصيحة للمستشير.



أسئلة حول الدرس

١. كيف تتحقق خيانة المجتمع المسلم؟
٢. لم كانت طاعة الشيطان خيانة للعهد الإلهي؟
٣. بيّن كيف يكون التقصير في حق الأخ خيانة.
٤. بيّن كيف يصدق على عدم النصح للمستشير الخيانة.



للوطالة

عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: إن لكل إمام عهداً في عنق أوليائه وشيعته، وإن من تمام الوفاء بالعهد زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبة في زيارتهم وتصديقاً بما رغبوا فيه كان أئمتهم شفعاءهم يوم القيامة. ^(١)

ولو أن أشياءنا - وفقهم الله لطاعته - على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد عليهم، لما تأخر عنهم اليمن بلقائنا، ولتعجلت لهم السعادة بمشاهدتنا على حق المعرفة وصدقها منهم بنا، فما يحبسهم عنا إلا ما يتصل بنا مما نكرهه ولا نؤثره منهم، والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل. ^(٢)

(١) من لا يحضره الفقيه - الشيخ الصدوق - ج ٢ ص ٥٧٧

(٢) الاحتجاج - الشيخ الطبرسي - ج ٢ ص ٣٢٥

الدرس السابع

المفاخرة بالآيمان

﴿أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *
الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً
عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ
فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(١)

قصة الآيات

ورد في بيان سبب النزول أنه بينما شعبة والعباس يتفاخران، إذاً أمر بهما علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: بماذا تتفاخران؟ فقال العباس: لقد أوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد: سقاية الحاج . وقال شعبة: أوتيت عمارة المسجد الحرام . فقال علي عليه السلام : استحييت لكما، فقد أوتيت على صغري ما لم تؤتيا ! فقالا: وما أوتيت يا علي؟ قال: ضربت خراطينكما بالسيف حتى آمنتما بالله ورسوله ! فقام العباس مغضباً يجر ذيله حتى دخل على رسول الله ﷺ ، وقال: أما ترى إلى ما يستقبلني به

(١) (البقرة: ١٧٧-١٨٠)

علي؟ فقال: ادعوا لي علياً، فدعي له، فقال: ما حملك على ما استقبلت به عمك؟ فقال: يا رسول الله! صدمته بالحق، فمن شاء فليغضب، ومن شاء فليرض! فنزل جبرائيل عليه السلام، فقال: يا محمد! إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول: أتل عليهم: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآيات. فقال العباس: إنا قد رضينا، ثلاث مرات^(١).

ما هو الفخر؟

الفخر هو التباهي وأن يرى الإنسان في نفسه من الصفات ما يجعله أفضل من الآخرين، فيرى لنفسه عليهم درجة وأنه في مقام أعظم من مقامهم. والفخر هو أول ما أوقع إبليس في المعصية، حيث افتخر على آدم إذ كان يرى أنه خلق من نار وادم خلق من طين والنار أفضل، وهذا ما حدثنا به أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول: فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه لأصله... فلعمر الله لقد فخر على أصلكم، ووقع في حسبكم، ودفع نسبكم... فالله الله في كبر الحمية وفخر الجاهلية^(٢).

الفخر من الآفات المهلكات

من الصفات السيئة التي على المؤمن أن يتخلّى عنها، الحذر من أن يعيش في نفسه حالة من الفخر، يرى فيها أنه أفضل من الآخرين، فيفتخر عليهم بذلك، فإن هذا يكون من المهلكات التي تؤدي به إلى جهنم لأنها تكون سبيلاً في تدمير إيمانه، وقد ورد في الرواية عن الإمام علي عليه السلام: أهلك الناس اثنتان: خوف الفقر، وطلب الفخر^(٣).

وذلك لأن الفخر يصل بالإنسان إلى مقام من لا يحبه الله عز وجل بنص الآية

(١) تفسير مجمع البيان - الشيخ الطبرسي - ج ٥ - ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة المعروفة بالفاصعة، الخطبة رقم ١٩٢.

(٣) بحار الأنوار - العلامة لمحيبي - ج ١٩ ص ٣٩.

الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^(١)

بل يصف الله عز وجل هذه الدنيا مستهيناً بها بأنها لعب ولهو وتفاخر، قال تعالى:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾^(٢)

أولاً. أسباب وقوع الإنسان في الفخر

١. الرئاسة

ورد في الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام: آفة الرياسة الفخر^(٣). فمن يتولى مسؤولية من المسؤوليات يظن من نفسه أنه أفضل من الآخرين، وأنه ما نال ذلك إلا بفضل ما يملكه من صفات حسنة وميزات أهلت له هذا المنصب، وهذا خطأ لأن الكثير من أمثاله يستحقون هذا المقام وليس له أن يفتخر على من هو مثله بأن وفقه الله لأن يكون في خدمة غيره.

٢. الضعة

من الأسباب التي قد تؤدي إلى وقوع الإنسان في الفخر، أن يكون وضعاً صغير القدر، لا يملك من الصفات ما يجعله على مستوى الناس العاديين، بل هو أقل منهم، ولكنه تعويضاً منه عن هذا النقص الذي يعيشه يلجأ إلى الفخر والتفاخر على الآخرين بما يتوهم أنه من الأمور الحسنة.

ورد في الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام: الافتخار من صغر الأقدار^(٤).

٣. الحمق

الحمق هو أن يرى الإنسان نفسه على صواب وهو يفعل خطأ، فيرى لنفسه الفضل

(١) لقمان، ١٨.

(٢) الحديد: ٢٠.

(٣) - ميرن الحكمة - محمد الريشهري - ج ١ ص ٨٥.

(٤) جامع أحاديث الشيعة السيد البروجردي ج ١٤ ص ٧٢.

وهو لا يملكه، ومن أعظم أسباب الفخر هو الحمق: لا حمق أعظم من الفخر^(١).

٤. الحساب

كثير من الناس يفتخر بحسبه ونسبه، فيفتخر الواحد بأبائه وأجداده، وهو لا يحمل من الفضل شيئاً في نفسه، وقد ورد في الرواية عن رسول الله ﷺ: آفة الحساب الافتخار^(٢).

وفي رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام: بعد تلاوته ﴿الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾: أفبمصارع آبائهم يفخرون! أم بعديد الهلكى يتكاثرون! يرتجعون منهم أجساداً خوت، وحركات سكنت، ولأن يكونوا عبراً أحق من أن يكونوا مفتخراً^(٣).

ثانياً. كيف نعالج الفخر؟

ورد في الروايات أن طريق علاج الفخر، أن يعتمد الإنسان إلى الرجوع إلى أصله وحقيقته ليرى أنه لا يملك شيئاً في هذا الكون بل هو مجرد نطفة ماء عاجزة لولا أن الله أعطاه ما أعطاه مما يملكه من مواهب.

ففي رواية عن الإمام الباقر عليه السلام: عجباً للمختال الفخور! وإنما خلق من نطفة ثم يعود جيفةً وهو فيما بين ذلك لا يدري ما يُصنع به^(٤).
وبهذا المضمون رواية أخرى عن الإمام زين العابدين عليه السلام: عجباً للمتكبر الفخور الذي كان بالأمس نطفةً ثم هو غداً جيفة^(٥).

ثالثاً. ما يصح الفخر به

من الفخر ما يكون ممدوحاً ومطلوباً، وذلك عندما يفتخر الإنسان بما يحمله من صفات هي بنظر الشارع صفات مرغوبة ومطلوبة، ونعرض لها هنا:

(١) - عيون الحكم والمواعظ: علي بن محمد الليثي الواسطي ص ٥٢٧.

(٢) - الكافي الشيخ الكليني ح ٢ ص ٢٧٨.

(٣) - نهج البلاغة، لحضنه رقم ٢٢١.

(٤) - الكافي الشيخ الكليني ح ٢ ص ٢٢٩.

(٥) - الكافي الشيخ الكليني ح ٢ ص ٢٢٨.

١. العبودية لله عز وجل

من عظمة مقام العبودية لله أن النبي ﷺ كان يفتخر به. وها نحن نشهد في الصلاة في كل يوم بقولنا «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».

وورد في مناجاة لأمير المؤمنين عليه السلام قال: إلهي كفى لي عزاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً^(١).

وإنما كان ذلك لأن الإنسان الذي يصل إلى مقام العبودية فقد وصل إلى الغاية التي خلق لأجلها حيث يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢)

٢. الطاعة

مما يفتخر به المؤمن أن يحمل عقيدة صحيحة هي عقيدة الإيمان بولاية الأئمة من أهل البيت عليهم السلام وقد ألحق بذلك العمل الصالح، أي قرن إيمانه بعمله، وهو ما وردت به الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: ثلاث هن فخر المؤمن وزينة في الدنيا والآخرة: الصلاة في آخر الليل، ويأسه مما في أيدي الناس، وولايته الإمام من آل محمد ﷺ^(٣).

٣. التقوى

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٤). إذا نال الإنسان مكانة أن يكون أكرم الناس عند الله، فحق له أن يفتخر بذلك، لأنه يفتخر بما عند الله. وقد ورد في الآية ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾^(٥). إذاً، يفتخر هو بما هو باقٍ عند الله عز وجل.

٤. الجهاد

(١) - الغصن - الشيخ الصدوق ص ٤٢٠.

(٢) - الدييات ٥٦

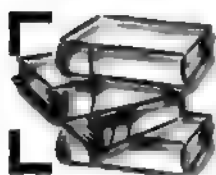
(٣) - لكافي الشيخ الكليني ج ٨ ص ٢٣٥

(٤) - الحجرات ١٣

(٥) - النحل ٩٦

هو من أعظم الفرائض التي كتبها الله على الناس. وقد وردت الروايات ببيان عظم فضل المجاهدين، ففي الرواية عن رسول الله ﷺ: خير الناس رجل حبس نفسه في سبيل الله يجاهد أعداءه يلتمس الموت أو القتل في مصافه^(١).

وورد في نهج البلاغة في كتاب من الإمام علي عليه السلام إلى معاوية: ألا ترى غير مخبر لك. ولكن بنعمة الله أحدث، أن قوماً استشهدوا في سبيل الله من المهاجرين، ولكل فضل، حتى إذا استشهد شهيدنا قيل سيد الشهداء. وخصه رسول الله ﷺ بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه؟ ألا ترى أن قوماً قطعت أيديهم في سبيل الله، ولكل فضل، حتى إذا فعل بواحدنا ما فعل بواحدهم قيل الطيار في الجنة وذو الجناحين؟ ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمّة تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمجها آذان السامعين...^(٢).

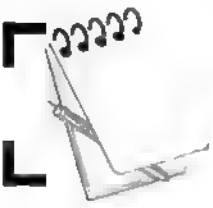


خلاصة الدرس

- ١. الفخر هو أن يرى الإنسان لنفسه من الفضل ما يتباهى به على الغير.
- ٢. الفخر طريق من طرق تدمير الإيمان ولذا كان من المهلكات.
- ٣. من أسباب وقوع الإنسان في حالة الفخر: ١. الرئاسة؛ ٢. الضعة؛ ٣. الحمق؛ ٤. الحسب.
- ٤. علاج الفخر بتدبر الإنسان في حقيقة ما يملكه ويرى عجز نفسه.
- ٥. ما يصح الفخر به هو: ١. العبودية لله عز وجل؛ ٢. الطاعة؛ ٣. التقوى؛ ٤. الجهاد.

(١) - ميراث الحكمة - محمد الريشهري - ج ١ ص ٤٥؛

(٢) - نهج البلاغة - الكتاب ٢٨



أسئلة حول الدرس

١. لماذا كان الفخر من المهلكات؟
٢. اذكر سبباً من الأسباب الموجبة للوقوع في الفخر شارحاً له بالتفصيل.
٣. لماذا كانت العبودية مما يصح به الفخر؟
٤. هل يصح من الإنسان أن يفتخر بعقيدته الصحيحة؟



للحطالة

ومن كلام له عليه السلام بعد تلاوته « **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ** »
 « يا له مرأماً ما أبعد، وزوراً ما أغفل، وخطراً ما أفضله . لقد استغلوا منهم
 أي مدكر ، وتناوشوهم من مكان بعيد . أفبمصارع آبائهم يفخرون؟ أم بعديد
 الهلكى يتكاثرون؟ يرتجعون منهم أجساداً خوت، وحركات سكنت . ولئن يكونوا
 عبراً أحق من أن يكونوا مفتخراً ، ولئن يهبطوا بهم جناب ذلة أحجى من أن يقوموا
 بهم مقام عزة . لقد نظروا إليهم بأبصار العشوة . وضربوا منهم في غمرة جهالة
 . ولو استنطقوا عنهم عرصات تلك الديار الخاوية والربوع الخالية ل قالت : ذهبوا
 في الأرض ضلالاً ، وذهبتم في أعقابهم جهالاً . تطأون في هامهم ، وتستثبتون في
 أجسادهم ، وترتعون فيما لفظوا ، وتسكنون فيما خربوا . وإنما الأيام بينكم وبينهم
 بواك ونوائح عليكم ، أولئكم سلف غايتمكم ، وفراط مناهلكم الذين كانت لهم مقاوم
 العز وحلبات الفخر ملوكاً وسوقاً . سلخوا في بطون البرزخ سبيلاً سلطت الأرض

عليهم فيه. فأكلت من لحومهم وشربت من دمائهم، فأصبحوا في فجوات قبورهم جماداً لا ينامون، وضماراً لا يوجدون. لا يفزعهم ورود الأهوال، ولا يحزنهم تنكر الأحوال، ولا يحفلون بالرواحف، ولا ياذنون للقواصف. غيباً لا ينتظرون، وشهوداً لا يحضرون. وإنما كانوا جميعاً فتشتوا، وألفاً فافترقوا. وما عن طول عهدهم ولا بعد محلهم عميت أخبارهم وصمت ديارهم، ولكنهم سقوا كأساً بدلتهم بالنطق خرساً، وبالسَّمع صمماً، وبالحركات سكوناً. فكانهم في ارتجال الصفة صرعى سبات. جيران لا يتأنسون، وأحباء لا يتزاوون. بليت بينهم عرى التعارف وانقطعت منهم أسباب الإخاء. فكلهم وحيد وهم جميع. وبجانب الهجر وهم آخلاء. لا يتعارفون ليل صباحاً ولا لنهار مساءً. أي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمداً.^{١١}

الدرس الثامن

الرقابة الإلهية والرقابة الذاتية

«يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا * وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا»^(١)

قصة الآيات

أن في قبيلة بني الأبيرق المعروفة نسبياً كان ثلاثة أشقاء هم «بشر» و «بشير» و «مبشر» سطا أحدهم وهو «بشير» على دار أحد المسلمين ويدعى «رفاعة» فسرق سيفه ودرعه وكمية من الغداء، فأخبر النبي ﷺ بالواقعة. ولكن الأشقاء الثلاثة اتهموا شخصاً من المسلمين اسمه «ليبد» الذي كان يسكن في دار واحد معهم، فتألم ليبد ألماً شديداً من هذه التهمة الباطلة واستل سيفه وتوجه إلى الأشقاء

(١) النساء الآيات من ١٠٨ إلى ١١٢.

الثلاثة صارخاً في وجوههم قائلاً: « أنتهمونني أنا بالسرقة وأنتم أجدر بهذا العمل؟ فأنتم هم أولئك المنافقون الذين كنتم تهجون النبي وتسبون أبيات الهجو إلى قريش، فإما أن تثبتوا ما تسبونني من تهمة، أو أن أهوي بسيفي على رؤسكم». فلما رأى أخوة السارق ذلك حاولوا استرضاء « لبيد » ولكنهما لما علما أن القضية قد وصلت إلى أسماع النبي لجأ إلى أحد متكلمي قبيلتهم فطلبوا منه أن يذهب مع جمع من الناس إلى النبي ويتظاهر بأن الحق إلى جانبهم ليبرئ السارق ويتهم من أخبر النبي بتلفيق التهمة على شقيقتهم، وقد قبل النبي ﷺ. استناداً إلى واجب العمل بظاهر الأمور. شهادة تلك المجموعة وأنب من جاءه بالخبر على عمله. وقد تألم ذلك الشخص الذي كان يعرف نفسه بريئاً... فنزلت الآيات المذكورة لتعلن براءة الرجل، وتؤنب مرتكبي الخيانة الحقيقيين^(١).

الرقابة الإلهية

إن ما يحتاج إليه أي قانون حتى يثمر ويصل الناس إلى الغرض الرئيسي من إقراره هو الرقابة على من يتخلف عن القانون لمعاقبته. وعنصر الرقابة هذا في القوانين الموضوعية من قبل البشر يكون ضعيفاً، لأن الرقابة تكون بشرية، وهي مما يمكن أن يتم اختراقه من جهات عدّة، فينجو المجرم من العقاب فيها. ولكن القانون الإلهي المنزل للبشرية يتمتع بالرقابة الإلهية. وهذه الرقابة تملك صفات خاصة لا ينالها أي قانون آخر، وتتمثل في:

١. أنها عامة تشمل كل شيء ولذا يصفها الله عز وجل بالتالي: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾^(٢).

٢. أنها لا تحيط بها موانع تعيق قيامها أو تحققها، ونحن نقرأ في دعاء كميل: فأسألك بالقدرة التي قدرتها... أن تهب لي في هذه الليلة وفي هذه الساعة كل جرم أجرمته... وكل سيئة أمرت بإثباتها الكرام الكاتبين الذين وكلتهم

(١) - الأمل في تفسير كتاب الله المنزل - الشيخ ناصر مكارم الشيرازي - ج ٣ - ص ٤٣٦ - ٤٣٧.

(٢) الأحراب ٥٢

بحفظ ما يكون مني وجعلتهم شهوداً علي مع جوارحي وكنت أنت الرقيب علي من ورائهم والشاهد لما خفي عنهم.

٣. تعدد الشهود والرقيب، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تَرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١).

الرقابة الذاتية لدى المسلم

مضافاً إلى ما تقدّم مما يمتاز به القانون الديني الإسلامي، فإن الإسلام سعى لتقوية عنصر الرقابة الذاتية لدى الإنسان المسلم. وهذا العنصر هو من أقوى ما يمكن أن يشكل ضماناً لعدم اختراق القانون، لأنّ الإنسان الذي لا يمكنه أن يخفي عن نفسه ارتكابه للإثم أو مخالفته للشرع، وإن أمكنه أن يخفي ذلك عن الناس، أو أن ينسى الله عز وجل في لحظة من اللحظات، لن يُقدم على المخالفة وارتكاب الذنب. في الرواية عن الإمام علي عليه السلام: اجعل من نفسك على نفسك رقيباً واجعل لآخرتك من دنياك نصيباً (٢).

وعنه عليه السلام: رحم الله عبداً راقب ذنبه وخاف ربه (٣).

وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: من خلا بذنب فراقب الله تعالى ذكره فيه واستحى من الحفظة غفر الله عز وجل له جميع ذنوبه وإن كانت مثل ذنوب الثقلين (٤).

(١) فصلت: الآيات من ١٩ إلى ٢٢.

(٢) - ميران الحكمة - محمد الريشهري ج ٢ ص ١١٠٨.

(٣) - ميران الحكمة - محمد الريشهري ج ٢ ص ١٠٥١.

(٤) وسائل الشيعة (البيت) لحر العاملي ج ١٥ ص ٢٢١.

وأما كيف تكون المراقبة، فيذكر علماء الأخلاق أنها تتحقق بأن يراقب نفسه عند الخوض في الأعمال، فيلاحظها بالعين اللائمة والمعاتبة، فإنها إن تركت طغت وفسدت، ثم يراقب كل حركة وسكون، عالماً أن الله تعالى مطلع على الضمائر، عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد، قائم على كل نفس بما كسبت، وأن سر القلب في حقه مكشوف، كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف.

المراقبة في الطاعة والمعصية

عندما نتحدث عن ضرورة مراقبة النفس، فلا يتوهم أحد أن المراقبة تعني فقط الحذر من الوقوع في المعاصي والآثام، أي في الذنوب فقط، بل المراقبة ينبغي أن تكون في ثلاثة مواطن:

١. المراقبة في المعصية: بأن يفكر الإنسان عندما يقدم على أي فعل من الأفعال، فيحذر من أن يكون في ذلك معصية الله عز وجل. ولوزلت قدمه فوقه في المعصية راقب نفسه فسعى لإظهار الندم والتوبة، وإذا كان لغيره حق عليه أعاد له حقه.

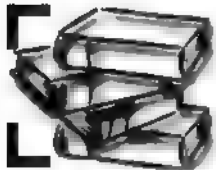
٢. المراقبة في الطاعة: فعندما يأتي بعبادة من العبادات أو طاعة من الطاعات وإن لم تكن عبادة، سعى لأن تكون خالصة لله عز وجل ولأن يقصد بها وجه الله، وأن يحذر من الوقوع بعد الإتيان بها بما يوجب بطلانها، كما لو أحسن إلى إنسان، ثم ابتدأ بالمنة عليه وإظهار ما له من الفضل عليه، فإن طاعته تذهب هباء.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(١)

و (المن): أن يرى نفسه محسناً، ومن ثمراته الظاهرة: الإظهار، والتحدث به، وطلب المكافأة منه، بالشكر والخدمة والتعظيم، و (الأذى): التعيير، والتوبيخ، والاستخفاف، والاستخدام، والقول السيء، وتقطيب الوجه.

والتشبيه الوارد في الآية هو بأن تتصور قطعة حجر صلد تغطيه طبقة خفيفة من التراب، وقد وُضعت في هذا التراب بذور سليمة، ثم عُرض الجميع للهواء الطلق وأشعة الشمس، فإذا سقط المطر المبارك على هذا التراب لا يفعل شيئاً سوى اكتساح التراب والبذور وبعثرتها، ليظهر سطح الحجر بخشونته وصلابته التي لا تنفذ فيها الجذور، وهذا ليس لأن أشعة الشمس والهواء الطلق والمطر كان لها تأثير سيء، بل لأنَّ البذر لم يزرع في المكان المناسب، ظاهر حسن وباطن خشن لا يسمح بالنفوذ إليه، قشرة خارجية من التربة لا تعين على نمو النبات الذي يتطلب الوصول إلى الأعماق لتتغذى الجذور.

٣. المراقبة في المباحات: وذلك من خلال المواظبة على رعاية الآداب الشرعية في المباحات، فإن لكل فعل مباح من الأكل، الشرب، النوم، السفر... إلخ، آداباً خاصةً إذا سعى الإنسان للمحافظة عليها تمكن من أن يكون من المراقبين لأنفسهم^(١).



خلاصة الدرس

. كل قانون تتوقف الفائدة المرجوة منه على وجود رقابة تشرف على تطبيق القانون.

. تمتاز الرقابة في القانون الإلهي بميزات لا تجدها في قانون آخر وتتمثل ب: أ.

أنها عامة وتشمل كل شيء، ب. أنها لا تحيط بها أية موانع، ج. تعدد الشهود والرقباء.

. حث الإسلام على تربية عنصر الرقابة الذاتية لدى المسلم.
. المراقبة على أنواع ثلاثة: أ. المراقبة في المعصية: ب. المراقبة في الطاعة، بعدم إبطالها، ج. المراقبة في المباحات، برعاية آداب العمل.



أسئلة حول الدرس

١. لم يتوقف القانون على وجود رقابة على تنفيذه؟
٢. ما هي ميزات الرقابة الإلهية؟
٣. كيف تفسر الرقابة الذاتية في الطاعات؟
٤. كيف تفسر الرقابة الذاتية في المباحات؟



للمطالعة

في الحديث القدسي: (إنما يسكن جنات عدن، الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني، والذين انحنت أصلابهم من خشيتي، وعزتي وجلالي ! إنني لأهم بعذاب أهل الأرض، فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب) . وحكي: (أن زليخا لما خلت بيوسف عليه السلام، فقامت وغطت وجه صنمها، فقال يوسف عليه السلام: ما لك؟ أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحيين من مراقبة الملك الجبار؟) . وهذه المعرفة - أعني معرفة اطلاع

اللّه على العباد وأعمالهم وسرائرهم وكونه رقيباً عليهم إذا صارت يقيناً أي خلت عن الشك ثم استولت على القلب سخرت القلب وقهرته على مراعاة جانب الرقيب وصرفت الهمّة إليه. والموقتون بهذه المعرفة مراقبتهم على درجتين: إحداهما مراقبة المقرّبين، وهي مراقبة التعظيم والإجلال، وهي أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة الجلال، ومنكسراً تحت الهيبة، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير، وهذا هو الذي صار همه هماً واحداً، وكفاه سائر الهموم. وأخرهما مراقبة الورعين من أصحاب اليمين، وهم قوم غلب عليهم يقين اطلاع الله على ظهورهم وبواطنهم، ولكن لا تدهشهم ملاحظة الجلال والجمال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للالتفات إلى الأحوال والأعمال والمراقبة فيها، وغلب عليهم الحياء من الله، فلا يقدمون ولا يجمعون إلا بعد التثبت، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة، فإنهم يرون الله مطلعاً عليهم، فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة. ثم ينبغي للعبد ألا يغفل عن مراقبة نفسه والتضييق عليها في لحظة من حركاتها وسكناتها وخطراتها وأفعالها.^(١)

الدرس التاسع

مصانة المسلمين

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(١).

قصة هاتين الآيتين

عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام : وكانت هذه اللفظة : (راعنا) من ألفاظ المسلمين الذين يخاطبون بها رسول الله ﷺ ، يقولون : راعنا ، أي إرع أحوالنا ، واسمع منا كما نسمع منك . وكان في لغة اليهود معناها : اسمع ، لا سمعت . فلما سمع اليهود المسلمين يخاطبون بها رسول الله ﷺ يقولون : راعنا ، قالوا : إنا كنا نشتم محمداً إلى الآن سراً ، فتعالوا الآن نشتمه جهراً . وكانوا يخاطبون رسول الله ﷺ ويقولون : راعنا ، ويريدون شتمه . ففطن لهم سعد بن معاذ الأنصاري ، فقال : يا أعداء الله عليكم لعنة الله . أراكم تريدون سب رسول الله ﷺ وتوهمونا أنكم تجرون في مخاطبته مجرانا ، والله لا سمعتها من أحد منكم إلا ضربت عنقه .

ولولا أنني أكره أن أقدم عليكم قبل التقدم والاستيذان له ولأخيه ووصيه علي بن أبي طالب عليه السلام القيم بأمور الأمة نانباً عنه فيها، لضربت عنق من قد سمعته منكم يقول هذا. فأنزل الله: يا محمد ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّا بِالسِّنْتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ إِلَى قَوْلِهِ - فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وأنزل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ يعني فإنها لفظة يتوصل بها أعداؤكم من اليهود إلى شتم رسول الله ﷺ وشتمكم، وقولوا: (انظرونا)، أي قولوا بهذه اللفظة، لا بلفظة راعنا، فإنه ليس فيها ما في قولكم: راعنا، ولا يمكنهم أن يتوصلوا بها إلى الشتم كما يمكنهم بقولهم راعنا (واسمعوا) إذا قال لكم رسول الله ﷺ قولاً وأطيعوا^(١).

حصانة المسلمين

تحدث أنّ على المسلمين أن لا يوفروا للأعداء فرصة الطعن بهم، وأن لا يتيحوا لهم بفعل أو قول ذريعة يسيئون بها إلى الجماعة المسلمة. عليهم أن يتجنبوا حتى ترديد عبارة يستغلها العدو لصالحه. الآية^(٢) تصرح بالنهي عن قول عبارة تمكن الأعداء من أن يستثمروا أحد معانيها لتضعيف معنويات المسلمين، وتأمرهم باستعمال كلمة أخرى غير تلك الكلمة القابلة للتحريف ولطعن الأعداء. حين يشدد الإسلام إلى هذا الحد في هذه المسألة البسيطة، فإن تكليف المسلمين في المسائل الكبرى واضح، عليهم في مواقفهم من المسائل العالمية أن يسدوا الطريق أمام طعن الأعداء، وأن لا يفتحوا ثغرة ينفذ منها المفسدون في الداخل أو الأعداء من الخارج للإساءة إلى سمعة الإسلام والمسلمين^(٣).

الحذر من الغفلة عن الأعداء

(١) - تفسير الإمام العسكري عليه السلام - المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام - ص ٤٧٨ - ٤٧٩

(٢) الآية ١٠٤ من سورة البقرة

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ج ١ ص ٢٢٥

ورد في العديد من الروايات الحث على اليقظة التامة من العدو، وعدم الغفلة عنه، في كل صغيرة وكبيرة، ففي الرواية عن الإمام علي عليه السلام : من نام لم يُنم عنه^(١). فالعدو دائم الترصّد لك، فإن غفلت عنه باغتك، ولذا ورد وصف من يقع في ذلك بأنه من عظيم العجز، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام : واللّه إن امرأ يمكنّ عدوه من نفسه يعرق لحمه، ويهشم عظمه، ويفري جلده، لعظيم عجزه^(٢).

ـ الصلح لا يمنع الحذر ـ

ولو صالحت عدواً لك، نتيجة ما تفرضه بعض الظروف. فإنّ هذا لا يعني إطلاقاً أن تغفل عن هذا العدو أو تأمن جانبه، ففي عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الأشر يقول: لا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك ولله فيه رضى، فإن في الصلح دعةً لجنودك، وراحةً من همومك، وأمناً لبلادك، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفل، فخذ بالحزم، واتهم في ذلك حسن الظن^(٣).

ـ الصحيح سوء الظن بالأعداء لا حسن الظن بهم ـ

ورد الحث في الروايات على حسن الظن بالناس، بل ورد النهي عن سوء الظن بهم، إلا في مواطن خاصة، فإن سوء الظن يصبح مطلوباً، وذلك كما في مواطن الاحتراس من العدو، فعن الإمام الحسن عليه السلام : الاحتراس من الناس بسوء الظن، هو الحزم^(٤).

وهذا القرآن الكريم عندما يتعرّض بالتعليم لطريقة القتال، ينبّه المؤمنين المجاهدين على ضرورة الحذر من الأعداء مبيناً كيف يتحينون الفرص لمباغطة

(١) - نهج البلاغة، الكتاب رقم ٦٢، كتابه إلى أهل مصر.

(٢) - نهج البلاغة، لخطبة ٣٤.

(٣) - نهج البلاغة، عهد الإمام لمالك الأشر.

(٤) - بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٧٥ ص ١١٥.

المسلمين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾^(١).

تربية أهل البيت عليهم السلام لشيعتهم

لقد كانت العيون تترصد شيعة أهل البيت عليهم السلام تريد النيل منهم والنقيصة فيهم، وذلك لانتسابهم للأئمة، حيث لم يجد أعداء أهل البيت عليهم السلام مجالاً للطعن على الأئمة بشيء، فأرادوا الطعن بهم من خلال الطعن بشيعتهم وأتباعهم وأنصارهم، ولذا ورد تحذير الأئمة عليهم السلام لشيعتهم من ذلك وتربيتهم على الحذر من ارتكاب بعض ما يكون باباً للتشنيع عليهم وعلى الأئمة، ففي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: يا معشر الشيعة إنكم قد نُسبتم إلينا، كونوا لنا زيناً، ولا تكونوا علينا شيناً^(٢).

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: معاشر الشيعة كونوا لنا زيناً، ولا تكونوا علينا شيناً، قولوا للناس حسناً، احفظوا ألسنتكم، وكفوها عن الفضول وقبيح القول^(٣).
كما بيّنت روايات أخرى أنّ فائدة هذا هي الاقتراب بالناس من الأئمة عليهم السلام، وجعل قلوب الناس تهوى الأئمة لما ترى من الشيعة من حسن الخلق، والآداب، ففي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: يا عبد الأعلى... فاقرئهم السلام ورحمة الله - يعني الشيعة - وقل: قال لكم: رحم الله عبداً استجّر مودة الناس إلى نفسه وإلينا، بأن يظهر لهم ما يعرفون ويكف عنهم ما ينكرون^(٤).

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: رحم الله عبداً حبيناً إلى الناس ولم يفضنا إليهم. أما والله لو يروون محاسن كلامنا لكانوا به أعز، وما استطاع أحد أن يتعلق

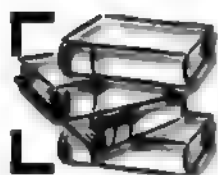
(١) النساء، ١٠٢.

(٢) بحار لانوار - العلامة المجلسي ح ٨٥ ص ١١٩.

(٣) - وسائل الشيعة (البيت) - الحر العاملي - ح ١٢ ص ١٩٤.

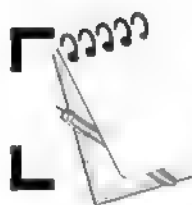
(٤) بحار لانوار - العلامة المجلسي ح ٢ ص ٧٧.

عليهم بشيء، ولكن أحدهم يسمع الكلمة فيحط إليها عشرًا^(١). وفي هذه الرواية نجد بوضوح كيف يبيّن الإمام عليه السلام أن ما يجب على الشيعة الحذر منه أن يتعلق أحد عليهم بشيء، أي أن يبدأ بتوجيه أصابع الذم إليهم بفعل من أفعالهم، فالفعل الصغير قد يضخمه الأعداء فيصبح فعلاً عظيماً، وباباً من أبواب الذم والطعن من قبل الأعداء، ولذا لا بد وأن تكون درجة الحذر أعلى في الموارد التي يكون الإنسان فيها في مرمى نظر الأعداء.



خلاصة الدرس

- . من مصاديق تمكين الأعداء من المسلمين فتح الباب أمامهم للطعن فيهم.
- . من أعظم العجز الغفلة عن أعداء الدين بما يتيح لهم الفرصة للانقضاض على المسلمين.
- . القاعدة والأصل هي سوء الظن بأعداء الدين والمسلمين.
- . سعى أهل البيت عليهم السلام لتربية أصحابهم على الحذر من فتح الباب لأعداء أهل البيت للطعن في الشيعة، وهذا ما وردت به الروايات العديدة.



أسئلة حول الدرس

١. ما هي عاقبة الغفلة عن الأعداء طبقاً لما ورد في الروايات؟

٢. فسر قول الإمام علي عليه السلام: فخذ بالحزم واتهم بذلك حسن الظن.
٣. كيف يمكن للأعداء استغلال صفائر الأمور للطعن على المسلمين؟
٤. فسر قول الإمام الصادق عليه السلام: كونوا لنا زيناً، ولا تكونوا علينا شيناً.



للحطالة

قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَالدَّيْنِ كَفَرُوا ثَوَّ تَغْلُفُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتَعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(١).

ورد في سبب نزول الآية أن النبي ﷺ نزل مع عدد من المسلمين أرض الحديبية وهم في طريقهم إلى مكة - فسمعت قريش بذلك فبعثت بخالد بن الوليد على رأس زمرة من مثني شخص لاعتراض طريق النبي ﷺ والمسلمين الذين معه ومنعهم من الوصول إلى مكة، فاستقر خالد والذين رافقوه في الجبال القريبة من مكة. ولما كان موعد صلاة الظهر، أذن بلال، ف صلى النبي ﷺ بالمسلمين جماعة، فشهد خالد بن الوليد صلاة المسلمين ففكر في خطة للهجوم على المسلمين، وأخبر جماعته أن يغتصموا فرصة أداء المسلمين لصلاة العصر التي يعتبرونها أعز عليهم من أعينهم، فبإغتنمهم بهجوم خاطف وهم في الصلاة ويقضون عليهم. وفي هذه الأثناء نزلت الآية بحكم صلاة الخوف التي تصون

المسلمين من كل هجوم خاطف . وهذه الآية إحدى معجز القرآن الكريم حيث أخبرت عن وقوع هجوم قبل قيام العدو بتنفيذه وبذلك أفشلت خطة العدو.^(١)

الدرس العاشر

من المظالم، تحقير المؤمنين

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١)

﴿وَاصْبِرْ نَفْسُكَ^(٢) مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطَا^(٣)﴾

قصة هاتين الآيتين

ورد في كتب التفسير في بيان سبب نزول الآية الأولى أنه كان بالمدينة قوم فقراء مؤمنون يسمون أصحاب الصفة. وكان رسول الله ﷺ أمرهم أن يكونوا في صفة يأوون إليها، وكان رسول الله ﷺ يتعاهدهم بنفسه، وربما حمل إليهم

(١) الانعام ٥٢

(٢) المعنى احبس نفسك وكن معهم

(٣) الكهف ٢٨

ما يأكلون، وكانوا يختلفون إلى رسول الله ﷺ فيقربهم ويقعد معهم ويؤنسهم، وكان إذا جاء الأغنياء والمترفون من أصحابه ينكرون عليه ذلك، ويقولون له: اطردهم عنك، فجاء يوماً رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وعنده رجل من أصحاب الصفة قد لزق برسول الله ﷺ، ورسول الله يحدثه، فقعد الأنصاري بالبعد منهما، فقال له رسول الله ﷺ: تقدم، فلم يفعل، فقال له رسول الله ﷺ: لعلك خفت أن يلزق فقره بك؟ فقال الأنصاري: اطرده هؤلاء عنك، فأنزل الله: «ولا تطرد الذين يدعون ربهم»^(١).

وورد في بيان سبب نزول الآية الثانية: أنه جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصين الفزاري، وذو وهما من المؤلفة قلوبهم، فوجدوا النبي ﷺ قاعداً مع بلال، وصهيب، وعمار، وخباب، في ناس من ضعفاء المؤمنين، فحقروهم، وقالوا: يا رسول الله! لو نحيت هؤلاء عنك، حتى نخلو بك، فإن وفود العرب تأتيك، فنستحي أن يرونا مع هؤلاء الأعباء، ثم إذا انصرفنا، فإن شئت فأعدهم إلى مجلسك! فأجابهم النبي ﷺ إلى ذلك، فقالا له: أكتب لنا بهذا على نفسك كتاباً، فدعا بصحيفة وأحضر علياً ليكتب، قال: ونحن قعود في ناحية، إذ نزل جبرائيل عليه السلام بقوله (ولا تطرد الذين يدعون) إلى قوله (أليس الله بأعلم بالشاكرين) فتحى رسول الله ﷺ الصحيفة، وأقبل علينا، ودنونا منه، وهو يقول: كتب ربكم على نفسه الرحمة، فكنا نقعد معه، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله عز وجل (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) الآية . قال: فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا، ويدنو حتى كادت ركبتنا تمس ركبته، فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها، قمنا وتركناه، حتى يقوم، وقال لنا: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي، معكم المحيا، ومعكم الممات^(٢).

(١) - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ١٧ - ص ٨١ - ٨٢

(٢) - تفسير مجمع البيان - الشيخ الطبرسي ج ٤ ص ٦٢

أولاً. تحقير المؤمن ظلم

من الأمراض الأخلاقية التي قد يُبتلى بها الإنسان المؤمن أن يعيش حالة من التحقير للمؤمنين متفضلاً عليهم بما يراه في نفسه مما يفتقده غيره. وقد ورد في الرواية عن رسول الله ﷺ: حسب ابن آدم من الشر أن يحقر أخاه المسلم^(١). بل من عظم هذا الذنب أن جعل الله عز وجل تحقير المؤمن في حد محاربة الله عز وجل، ففي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: قال الله عز وجل: ليأذن بحرب مني من آذل عبدي المؤمن^(٢).

ثانياً. عقوبة تحقير المؤمن

نظراً لعظم هذا الذنب عند الله عز وجل فإن ما ورد في الروايات من بيان لعقوبة هذا الذنب والآثار التكوينية المترتبة عليه عظيم جداً، فنلاحظ هذه الروايات:

أ. الرد من الله

إذا وقع الإنسان في ذنب تحقير المؤمن، فإن الرد على ذلك سوف يكون من الله عز وجل، وذلك لأن المؤمن قد لا يستطيع أن ينتصر لنفسه ممن حقره، فيكون العقاب إلهياً، ففي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: من حقر مؤمناً مسكيناً لم يزل الله له حاقراً ماقتاً حتى يرجع عن محقرته إياه^(٣).

ب. الفضيحة والتشهير

من العقوبات التي ينالها من يُمارس التحقير بالناس أن ينقلب الأمر عليه، وذلك بفضيحة الله عز وجل له على فعله، ففي رواية عن رسول الله ﷺ: من استذل مؤمناً أو مؤمنة، أو حقره لفقره أو قلة ذات يده، شهره الله تعالى يوم القيامة ثم

(١) - ميراث الحكمة - محمد البريشهري - ج ١ ص ٦٥٢.

(٢) - ثواب الأعمال - الشيخ الصدوق - ص ٢٢٨.

(٣) - الكافي الشيخ الكليني ج ٢ ص ٢٥١.

يفضحه^(١).

وهكذا نشهد كيف ان الروايات تجعل العقوبة من الله عز وجل، حيث يكون الانتقام والانتصار للمؤمن من الله عز وجل مباشرة. فقد ورد في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى يقول: من أهان لي ولياً فقد أصد لمحاربتي، وأنا أسرع شيء إلى نصرته أوليائي^(٢).

ثالثاً. كيف نعالج هذا المرض الأخلاقي؟

كما بيّنت الرواية عظم هذا المرض الأخلاقي، وضرورة تجنبه، بيّنت الروايات طرق علاجه، وكيفية الخلاص منه. وهذه الطرق تتمثل بالتالي:

أ. العبودية المشتركة

إذا تأمل الإنسان قليلاً في الشخص الذي يحتقره فسوف يجد أنه يشترك معه في العبودية لله عز وجل، فما معنى أن يحتقره؟ لا بد وأن يكون احتقاره له لأمر غير صحيح، ففي الرواية عن لقمان عليه السلام لابنه: يا بني لا تحقرن أحداً بخلقان ثيابه، فإن ربك وربّه واحد^(٣).

ب. الخطأ في معيار التفضيل

من الأسباب التي تؤدي إلى وقوع الإنسان في هذا المرض الأخلاقي، الخطأ في معيار التفضيل، فهو يرى لنفسه من الصفات ما يجعله يعتقد نفسه أفضل من الغير، فيبدأ بتحقيق ذلك الغير، مع أن واقع الحال أن ذلك الغير أفضل منه، ولو وضع الإنسان في باله دائماً هذا الاحتمال لأمكنه أن يحذر من الوقوع في هذه المعصية. ففي الرواية عن رسول الله ﷺ: لا يزرأن أحدكم بأحد من خلق الله فإنه لا يدري أيهم ولي الله^(٤).

(١) - وسند الشيعية (البيت) - الحر العاملي - ج ١٢ ص ٢٦٧.

(٢) - الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ ص ٢٥١.

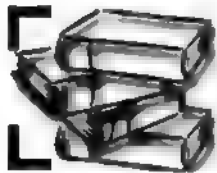
(٣) - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٦٩ ص ٤٧.

(٤) - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٧٢ ص ١٤٧.

ج. القيمة الحقيقية هي عند الله

إن القيمة الحقيقية للإنسان هي عند الله عز وجل. فإذا كان الإنسان عند الله كبيراً، فهذا هو الذي له حق أن يكون محلاً للاحترام، وتحقيره يكون خطئاً وخلاً. فإذا كانت قيمة الإنسان عند الله عز وجل بإيمانه، فلا ينبغي أن يحقر مؤمناً، لأن هذا المؤمن يكون كبيراً عند الله، ففي الرواية: عنه عليه السلام: لا تحقرن أحداً من المسلمين، فإن صغيرهم عند الله كبير ^(١).

كيف وقد جعل الله الإيمان من أعظم الكرامات؟ فكيف يقوم الإنسان بتحقير غيره وهو من أهل الإيمان؟ ففي الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام: ما خلق الله عز وجل خلقاً أكرم على الله عز وجل من المؤمن لأن الملائكة خدام المؤمنين ^(٢). بل كيف تحتقر المؤمن وأنت تدرك عظمة هذا المؤمن عند الله، وهي أعظم من عظمة الكعبة المشرفة بيت الله عز وجل؟ ففي الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نظر إلى الكعبة فقال: مرحباً بالبيت، ما أعظمك وأعظم حرمتك على الله! والله للمؤمن أعظم حرمة منك لأن الله حرم منك واحدة ومن المؤمن ثلاثة: ماله، ودمه، وأن يُظن به ظن السوء ^(٣).



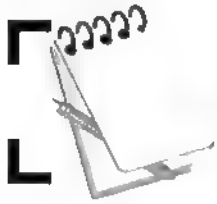
خلاصة الدرس

- . تحقير المؤمنين في حد المحاربة لله عز وجل على ما وردت به الروايات.
- . عقوبة تحقير المؤمن: أ. الرد من الله: ب. الفضيحة من الله للمحقر.

(١) ميرن لحكمه محمد لرنشهرى ج ١ ص ٦٥٢

(٢) الكفى لشبح الكلبنى ج ٢ ص ٣٣

(٣) بحار الانوار العلامة المجلسي ج ٦٤ ص ٧١



أسئلة حول الدرس

١. ما هو تعريف التحقير؟
٢. لماذا ينتصر الله عز وجل لعبده المؤمن؟
٣. كيف تشكل العبودية لله علاجاً لحالة التحقير؟
٤. كيف بيّن الرسول أن حرمة المؤمن أعظم من حرمة الكعبة؟



للمطالعة

معايير التقييم

من القضايا المهمة في حياة الأفراد والمجتمعات هي قضية «معايير التقييم» و«نظام القيم» الذي يتحكم بثقافة ذلك المجتمع . لأن كل الحركات الصادرة عن الأفراد والجماعات في حياتهم إنما تنبع من هذا النظام وتهدف إلى خلق تلك القيم . واشتباه قوم من الأقوام وأمة من الأمم في هذه القضية والتعامل بقيم خيالية لا أساس لها قد يؤدي إلى طبع تأريخهم بطابع الغرور . عبید الدنيا المفرورون يتصورون بأن القيم تنحصر فقط في المال والقدرة المادية والتعداد البشري . وهناك نماذج كثيرة من هذا القبيل تلاحظ في القرآن الكريم ، منها:

١ - فرعون ، الطاغية المتجبر ، الذي كان يقول لمن حوله بأنه لا يصدق أن موسى عليه السلام رسول من الله ، فإن كان حقاً ما يقول فلم لم يعطه الله سواراً من الذهب؟ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب . وحتى أنه يرى عدمها دليلاً على المهانة والدونية .

فيقول: أم أنا خير من هذا الذي هو مهين؟

٢ - مشركو عصر الرسالة المحمدية، تعجبوا من نزول القرآن على رجل فقير كرسول الله ﷺ وقالوا: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم .

٣ - بنو إسرائيل اعترضوا على نبي زمانهم « أشموئيل » في قضية انتخاب « طالوت » كقائد للجيش وقالوا: نحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال .

٤ - مشركو زمان نوح عليه السلام الأثرياء اعترضوا عليه بأن اتبعه أراذلهم، وهم الفقراء في نظرهم، قالوا أنؤمن لك واتبعك الأراذلون؟

٥ - أثرياء مكة أوردوا نفس هذا الاعتراض على الرسول الأكرم ﷺ بقولهم: لقد أحاط بك الحفاة، ونحن نشمئز حتى من رائحتهم، فلا نتبعك إلا بابتعادهم عنك . لهذه الأسباب، كان أول عمل إصلاحي يقوم به الأنبياء هو تحطيم أطر التقييم الكاذبة تلك، واستبدالها بالتقييم الإلهية الأصيلة والقيام بـ « ثورة ثقافية » أبدلوا أساس الشخصية ومحورها من الأموال والأولاد والثروة والجاه والشهرة القبلية والعائلة إلى التقوى والإيمان والعمل الصالح . فليس هناك شيء غير التقوى، والإيمان المقترن بالشعور بالمسؤولية، وصلاح العمل، ليس سوى ذلك معياراً لتقييم شخصية الإنسان وقربه من الله تعالى . وكل من كان له نصيب أكبر من ذلك كان إلى الله أقرب وعنده أكرم. ^(١)

الدرس الحادي عشر

منطق التبرير

«لقد ابتغوا الفتن من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون * ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * إن تصيبك حسنة تسؤهم وإن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل ويتولوا وهم فرحون»^(١).

قصة هذه الآيات

قال جماعة من المفسرين: إن النبي ﷺ كان يعبئ المسلمين ويهيئهم لمعركة تبوك ويدعوهم للتحرك نحوها، فبينما هو على مثل هذه الحال إذا برجل من رؤساء طائفة « بني سلمة » يدعى « جد بن قيس » وكان في صفوف المنافقين، جاء إلى النبي ﷺ مستأذناً أن لا يشهد المعركة، متذرعاً بأن فيه شيقاً إلى النساء، وإذا ما وقعت عيناه على بنات الروم فر بما سيهيم ولها بهن وينسحب من المعركة! فأذن له النبي ﷺ بالانصراف، فنزلت الآية أعلاه مغنفة ذلك الشخص! فالتفت النبي ﷺ إلى بني سلمة وقال: من كبيركم؟ فقالوا: جد بن قيس، إلا أنه رجل بخيل وجبان،

(١) النوبة الآيات من ٤٨ إلى ٥٠

فقال: وأي شيء أبشع من البخل؟ ثم قال: إن كبيركم ذلك الشاب الوضئ الوجه بشر بن براء « وكان رجلاً سخياً سمحاً بشوشاً »^(١).

منطق التبرير

منطق التبرير هو من الأمراض التي يُبتلى بها الناس، ولعله يظهر بوضوح في التكاليف العامة، والتي نعبر عنها بالواجبات الكفائية، كالجهاد، دفع الحقوق الشرعية، كفالة الآيتام وغير ذلك.

يلجأ الإنسان إلى التخلف عن القيام بواجبه، ولكنه يسعى ليقنع نفسه أولاً، وليقنع الآخرين ثانياً، بأنه لم يتخلف عن أي واجب، بل هو لم يقم بهذا الواجب لعذر يراه مبرراً، وهو غير مبرر في واقع الأمر. ولو رجع إلى قرارة نفسه، وخلا بنفسه لعلم أنه مجرد تبرير ضعيف، يسعى من خلاله للتستر على مخالفته للواجب.

ولمنطق التبرير هذا نماذجه الكثيرة في مجتمعنا الإسلامي، فتجد شخصاً موظفاً في مكان ما، أو قد أوكل إليه القيام بمهمة من المهام، ولكنه في نفسه يتقاعس عن القيام بها، أو لا يرغب في ذلك، كسلاً منه أو لمشقتها، فيبدأ بتبرير ذلك، بأن فلاناً المتولي لمنصب من المناصب لا يقوم بها، أو أن أحد زملائه في العمل لا يقوم بها، وهذا هو منطق التبرير، ولكنه لا يلتفت من جهة إلى أن من يتذرع بهم لعل لهم عذرهم أو لعل عليهم واجبات أخرى، كما لا يلتفت من جهة أخرى، إلى أنه لو وقع أولئك في التقصير والتخلف عن أداء الواجب فهذا لا يبرر له أن يقع في الأمر نفسه.

منطق التبرير، ذنب يضاف إلى ذنب

إن الشخص الذي يسيطر عليه منطق التبرير، سوف يضيف إلى معصيته

(١) لأمتل في تفسير كتاب له المبرور الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ج ٦ ص ٧٣

وتخلفه عن أداء الواجب، معصية أخرى وذنباً آخر، فإنه عندما يبرر ما يرتكبه من معصية أو ما يتخلف عنه فهو يدعو الغير إلى أن يتخذ نفس ذلك المنطق، ليفعل ما يفعله، ولذا كانت المعصية التي يجاهر بها الإنسان أعظم من المعصية التي يتستر بها، لأن المجاهرة بالمعصية يحمل دعوة لسائر الناس لارتكابها، وقد ورد في الرواية عن رسول الله ﷺ فيما رواه جعفر بن محمد عن أبيه (عليه السلام) :- إن المعصية إذا عمل بها العبد سراً لم تضر إلا عاملها، وإذا عمل بها علانية ولم يعير عليه أضرت العامة. قال جعفر بن محمد (عليه السلام) : وذلك أنه يذل بعمله دين الله، ويقتدي به أهل عداوة الله^(١).

منطق التبرير وانعدام التوبة

إن المذنب المعترف بذنبه يفتح الله عز وجل له باب التوبة، فلو دخل في هذا الباب لتمكن من أن يكفر عن ذنبه الذي ارتكبه، ولكن المذنب الذي لا يقرّ بذنبه بل يعتمد منطق التبرير لذنبه، فلن يدخل من خلال التوبة للتكفير عن ذنبه، لأنه ومن خلال منطق التبرير لا يقرّ بذنبه إطلاقاً، فكيف يتوب؟

ولذا نقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُونا عَنْ أَزْوَاجِهِمْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾^(٢).

وورد عن الإمام الباقر (عليه السلام) : والله ما ينجو من الذنب إلا من أقر به^(٣). بل إن ما ورد في الروايات يؤكد على أن الإقرار بالذنب هو باب للمغفرة، ففي الرواية عن الإمام الباقر (عليه السلام) : لا والله ما أراد الله تعالى من الناس إلا خصلتين: أن يقرّوا له بالنعم فيزيدهم وبالذنوب فيغفرها لهم^(٤).

(١) - ميران الحكمة - محمد الريشهري - ج ٣ ص ١٩٤٧

(٢) - توبة: ١٠٢.

(٣) - ميران الحكمة - محمد الريشهري - ج ١ ص ٢٤١

(٤) - ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج ١ ص ٢٤١

منطق التبرير والإصرار على الذنب

من أعظم المخاطر التي يقع فيها المعتمد على منطق التبرير ، هو أن يقع في إثم آخر وهو الإصرار على الذنب، فقد ورد في الرواية عن الإمام علي عليه السلام :
الندم استغفار، الإقرار اعتذار، الإنكار إصرار^(١).

إن المصر على ذنبه، والذي يسعى للتستر على ذنبه بمنطق التبرير ، وهو يعلم يقيناً أن الله عز وجل لا تخفى عليه خافية، وأنه يعلم حقيقة ما يقوم به، يكون ممن يرتكب إثمًا كبيراً لأنه يأمن بذلك من مكر الله، وقد ورد في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام : الإصرار أمن، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون^(٢).

منطق التبرير والاستخفاف بالذنب

من المخاطر أيضاً التي تحيط بمنطق التبرير، أن يعيش الذي يعتمد على هذا المنطق حالة من الاستهانة والاستخفاف بالذنب، وهذا ما ورد التحذير منه لأنه من المفاسد التي تجر الإنسان من معصية إلى أخرى، وفي يوم القيامة سوف يُسأل الانسان عن كل ما اقترفه صغيراً كان أو كبيراً، ففي الرواية عن رسول الله ﷺ :
يا بن مسعود، لا تحقرن ذنباً ولا تصفرن، واجتنب الكبائر، فإن العبد إذا نظر يوم القيامة إلى ذنوبه دمعت عيناه قيحاً ودماً، يقول الله تعالى ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً﴾^(٣).

فلا بد وأن يشعر الإنسان بالمسؤولية تجاه ما ارتكبه من ذنب، بل أن يشعر بثقل الذنب وإن كان صغيراً، ورد في الرواية عن رسول الله ﷺ : إن المؤمن ليرى ذنبه كأنه تحت صخرة يخاف أن تقع عليه، والكافر يرى ذنبه كأنه ذباب مر على أنفه^(٤).

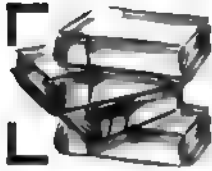
(١) - ميران الحكمة - محمد الريشهري - ج ١ ص ٣٤١

(٢) - ميران الحكمة - محمد الريشهري - ج ٢ ص ٩٩٢

(٣) - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٧ ص ١٠١

(٤) - ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج ٢ ص ٩٩١

بل إنَّ من التوفيق الإلهي الذي يحيط بالإنسان أن يتذكر ذنبه، وقد ورد عن رسول الله ﷺ : إن الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبد خيراً جعل ذنوبه بين عينيه ممثلة والإثم عليه ثقيلًا وبليلاً، وإذا أراد بعبد شراً أنساه ذنوبه^(١).



خلاصة الدرس

- منطق التبرير هو عبارة عن ارتكاب المعصية والمخالفة ثم تبرير ذلك للنفس عبر أعذار واهية.
- في منطق التبرير ذنب مضاعف لأن في ذلك دعوة للغير للاقتداء بفعله.
- الاعتراف بالذنب باب للتوبة وهو أمر يُحرم منه من يعتمد منطق التبرير.
- منطق التبرير يؤدي إلى وقوع الإنسان في الإصرار على المعصية وهو من الأمن من مكر الله.
- منطق التبرير يؤدي إلى الاستخفاف بالذنب وهو من عظام الذنوب.



أسئلة حول الدرس

١. عرّف منطق التبرير واضعاً مثلاً تشاهده في الناس من ذلك.
٢. كيف يؤدي منطق التبرير إلى إغلاق باب التوبة؟
٣. لماذا كان الذنب الذي يلجأ الإنسان إلى تبريره مضاعفاً؟
٤. ما هو الاستخفاف بالذنب وكيف يقع الإنسان فيه؟



للوطاعة

هاروت وماروت ملكان إلهيان جاءا إلى الناس في وقت راج السحر بينهم وابتلوا بالسحرة والمشعوذين، وكان هدفهما تعليم الناس سبل إبطال السحر. وكما أن إحباط مفعول القنبلة يحتاج إلى فهم لطريقة فعل القنبلة، كذلك كانت عملية إحباط السحر تتطلب تعليم الناس أصول السحر، ولكنهما كانا يقرنان هذا التعليم بالتحذير من السقوط في الفتنة بعد تعلم السحر ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولاً إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾. وسقط أولئك اليهود في الفتنة، وتوغلوا في انحرافهم، فزعموا أن قدرة سليمان لم تكن من النبوة، بل من السحر والسحرة. وهذا هو دأب المنحرفين دائماً، يحاولون تبرير انحرافاتهم باتهام العظماء بالانحراف. هؤلاء القوم لم ينجحوا في هذا الاختبار الإلهي، فأخذوا العلم من الملكين واستغلوه على طريق الإفساد لا الإصلاح، لكن قدرة الله فوق قدرتهم وفوق قدرة ما تعلموه: ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾. لقد تهافتوا على اقتناء هذا المتاع الدنيوي وهم عالمون بأنه يصادر آخرتهم ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق﴾. لقد باعوا شخصيتهم الإنسانية بهذا المتاع الرخيص ولبس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون. لقد أضاعوا سعادتهم وسعادة مجتمعهم عن علم ووعي، وغرقوا في مستنقع الكفر والانحراف ﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾^(١).

(١) الامثل في تفسير كتاب الله المنزل - الشيخ ناصر مكارم الشيرازي - ج ١ - ص ٢١١

الدرس الثاني عشر

معيار العمل الصالح

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١).

قصة هاتين الآيتين

وردت عدة روايات في سبب نزول هاتين الآيتين في كتب التفسير والحديث، يستفاد من مجموعها أن النبي ﷺ كان قد صمم على إعداد جيش المسلمين لمقابلة العدو - وربما كان ذلك في غزوة تبوك - وكان محتاجاً لمعونة الناس في هذا الأمر، فلما أخبرهم بذلك سارع الأغنياء إلى بذل الكثير من أموالهم، سواء كان هذا البذل من باب الزكاة أو الإنفاق، ووضعوا هذه الأموال تحت تصرف النبي ﷺ. أما الفقراء، كأبي عقيل الأنصاري أو سالم بن عمير الأنصاري، لما لم يجدوا ما ينفقونه لمساعدة جنود الإسلام، عمدوا إلى مضاعفة عملهم، واستقاء

(١) البقرة الآيتان ٧٩ و ٨٠.

الماء ليلاً، فحصلوا على صاعين من التمر، فادخروا منه صاعاً لمعيشتهم ومعيشة أهليهم. وأتوا بالآخر إلى النبي ﷺ وقدموه، وشاركوا بهذا الشيء اليسير. الذي لا قيمة له ظاهراً. في هذا المشروع الإسلامي الكبير. غير أن المنافقين الذين لا هم لهم إلا تتبع ما يمكن التشهير به بدلاً من التفكير بالمساهمة الجدية عابوا كلا الفريقين، أما الأغنياء فاتهموهم بأنهم إنما ينفقون رياء وسمعة، وأما الفقراء الذين لا يستطيعون إلا جهدهم، والذين قدموا اليسير وهو عند الله كثير، فإنهم سخروا منهم بأن جيش الإسلام هل يحتاج إلى هذا المقدار اليسير؟ فنزلت هاتان الآيتان، وهددتاهم تهديداً شديداً وحذرتاهم من عذاب الله^(١).

المعيار في قيمة العمل في الإسلام

أنزل الله عز وجل شريعة الإسلام ليبين للناس التعاليم التي ينبغي أن تكون مُعْتَمَدة من قبلهم في تقييم الأمور ومعرفة الحق من الباطل أو العمل المقبول من غير المقبول، أو معرفة العمل الأفضل من العمل المفضول.

فالمعيار الذي يسير عليه الناس هو أن من يقدم أكثر هو صاحب الفضل الأكبر، ملاحظين في ذلك مجرد قضية أنه أكثر بذلاً أو أكثر عطاءً، ولكن القرآن الكريم يرفض ذلك، مؤكداً خطأ هذا المعيار، وهذا هو الاستفادة من الآيات المباركة المذكورة في هذا الدرس.

كما وردت الروايات العديدة التي تؤكد على أن العمل الأفضل عند الله عز وجل لا يرتبط بالكثرة فقط، بل يخضع لمعايير أخرى في التقييم.

العمل الأفضل عند الله

حتى يوصف العمل بأنه أفضل وموجب للتقرب أكثر من الله عز وجل، لا بد وأن تجتمع فيه صفات عدة:

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ج ٦ ص ١٣٩ - ١٤٠

أ. الإخلاص

الإخلاص في العمل شرط في القبول وشرط في الوصول إلى الغاية الرئيسية التي يريدها الإنسان من العمل وهي التقرب إلى الله عز وجل. وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: الإخلاص غاية الدين^(١).

كما ورد في الروايات بيان أن الإخلاص هو الموجب لكون العمل أفضل عند الله عز وجل، ففي الرواية عن رسول الله ﷺ: بالإخلاص تتفاضل مراتب المؤمنين^(٢).

بل لعل الصورة الظاهرية التي تبدو للناس أن النجاحات والانتصارات التي يكتبها الله عز وجل تنحصر العلة فيها بما يعدّه الإنسان بحسب الظاهر سبباً لذلك، ولكن الروايات وردت بأن بعض ما لا يراه الناس ولا يعدّونه سبباً للانتصارات هو السبب الحقيقي، ففي الرواية عن رسول الله ﷺ: إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم وصلاتهم^(٣).

ب. العمل الصحيح

إذا كان المطلوب من العمل هو الوصول إلى غاية وهدف محدد، فإن العمل الذي يكون موصلاً إلى ذلك هو العمل الصحيح، لا العمل الكثير، فما على الإنسان أن يسعى إليه وأن ينظر إليه هو أن يكون عمله صائباً لا أن ينظر إلى الكثرة فقط، وهذا مضافاً إلى شهادة فطرة الإنسان ووجدانه بذلك، وردت به الروايات، فعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: ليس يعني أكثركم عملاً، ولكن أصوبكم عملاً، وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة^(٤).

ج. العمل مع العلم

(١) - غرر الحكم: ٨٥١، ٧٤.

(٢) - ميراث الحكمة - محمد الريشهري - ج ١ ص ٧٥٤.

(٣) - ميراث الحكمة - محمد الريشهري - ج ١ ص ٧٥٥.

(٤) - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٩٢ ص ١٥٠ حديث ٢.

من الأسباب التي ينبغي أن تلحظ في الحكم على العمل بأنه أفضل عند الله عز وجل هو أن يصدر العمل عن علم، أي أن يكون العامل مدركاً لما يقوم به ولما يترتب على عمله من آثار ونتائج، ففي الرواية عن الإمام الكاظم عليه السلام : قليل العمل من العاقل مقبول مضاعف، وكثير العمل من أهل الهوى والجهل مردود^(١).

وهذا يرجع إلى نفس ما ذكرناه سابقاً، فإن الغاية لما لم تكن هي مجرد العمل، بل الوصول من خلال العمل إلى نيل مقام القرب من الله عز وجل والوصول إلى غاية مراد المريرين فإن العلم هو من أهم أسباب الوصول إلى ذلك، ولذا ورد في الروايات وبألسنة متعددة بيان فضل العامل عن علم عن العامل عن جهل، بل وبيان أن القليل مع العلم أفضل وخير من الكثير مع الجهل، ففي الرواية عن رسول الله ﷺ : ركعتان يصليهما العالم أفضل من ألف ركعة يصليهما العابد^(٢).

ورد في رواية أخرى تفضيل العمل القليل على الكثير إن كان الأول قريناً لليقين، فعن الإمام الصادق عليه السلام : العمل الدائم القليل على اليقين، أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين^(٣).

وعن الإمام الصادق عليه السلام : يأتي صاحب العلم قدام العابد بربوة مسيرة خمسمائة عام^(٤).

وعن رسول الله ﷺ : ساعة من عالم يتكئ على فراشه ينظر في عمله، خير من عبادة العابد سبعين عاماً^(٥).

د. المداومة على العمل

(١) تحف العقول - ابن شعبة الحراني - ٣٧٨

(٢) من لا يحضره الفقيه - لشبح صدوق - ج ٤ ص ٣٦٧ حديث ٥٧٦٢ .

(٣) - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٧١ ص ٢١٤ حديث ١٠ .

(٤) - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٢ ص ١٨ حديث ٤٨ .

(٥) روضة الواعظين - النيسابوري - ص ١٢ .

من أسباب التفضيل بين الأعمال، المداومة على العمل وإن كان قليلاً، ففي الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام : أحب الأعمال إلى الله عز وجل ما (داوم) عليه العبد، وإن قل^(١).

وفي رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه السلام : كان يقول : إني أحب أن أدوم على العمل إذا عودتني نفسي، وإن فاتني من الليل قضيته من النهار، وإن فاتني من النهار قضيته بالليل، وإن أحب الأعمال إلى الله ما ديم عليها^(٢).

هـ. العمل الذي لا يلحقه الأذى

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِنْهَا وَلَا أذى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾^(٣).

ذكر في تفسير الأمثل في تفسير الآية الأولى: (تبين هذه الآية منطق الإسلام في قيمة الأشخاص الاجتماعية وكرامتهم، وترى أن أعمال الذين يسعون في حفظ رؤوس الأموال الإنسانية، ويعاملون المحتاجين باللطف ويقدمون لهم التوجيه اللازم، ولا يفشون أسرارهم، أفضل وأرفع من إنفاق أولئك الأنانيين ذوي النظرة الضيقة الذين إذا قدموا عوناً صغيراً يتبعونه تجريح الناس المحترمين وتحطيم شخصياتهم)^(٤).

فالعمل قد يصدر عن نية خالصة ويكون مستجعماً لشروط القبول عند الله، ولكن الإنسان يلحقه بما يبطله، وقد ورد في الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام : الإبقاء على العمل أشد من العمل، قال - الراوي - : وما الإبقاء على العمل؟ قال: يصل الرجل بصلة وينفق نفقة لله وحده لا شريك له فتكتب له سراً، ثم يذكرها فتمحى فتكتب له علانية، ثم يذكرها فتمحى وتكتب له رياءً^(٥).

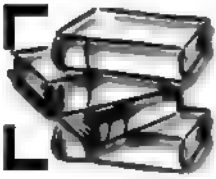
(١) الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ ص ٨٢ ح ٢.

(٢) مسند الوسائل - المحدث النوري - ج ١ ص ١٢٩ حديث ١٧٥.

(٣) البقرة. الايتين ٢٦٢ و ٢٦٣.

(٤) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل - الشيخ ناصر مكارم الشيرازي - ج ٢ ص ٢٩٩.

(٥) الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ ص ٢٩٦ حديث ١٦.



خلاصة الدرس

يعتمد الناس معيار الكثرة لكون العمل أفضل، وهذا ما لا يقرّه الإسلام.

العمل الأفضل عند الله عز وجل هو الذي يقترن بـ:

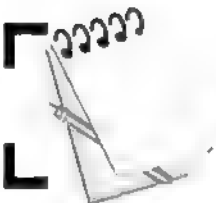
أ. الإخلاص

ب. الصحة

ج. العلم

د. المداومة

هـ. الخلو من الأذى.



أسئلة حول الدرس

١. لماذا كان الإخلاص من أسباب تفضيل العمل؟
٢. كيف تفسّر قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؟
٣. لماذا كان العمل من العالم أفضل من العمل من الجاهل؟
٤. ما هو المراد من الإبقاء على العمل؟



للطالعة

إن نوع العمل هو المهم لا مقداره. وهذه الحقيقة في القرآن واضحة جلية، فالإسلام لم يستند في أي مورد إلى كثرة العمل ومقداره، بل هو يؤكد دائماً - وفي كل الموارد - على أن الأساس هو نوع العمل وكيفيته، وهو يولي الإخلاص في العمل أهمية خاصة. والآيات المذكورة نموذج واضح لهذا المنطق القرآني. وكما رأينا... القرآن الكريم مجّد عملاً مختصراً لعامل مسلم بقي يعمل إلى الصباح في استقاء الماء بقلب يغمره عشق الله ومحبته، وينبض بالمسؤولية تجاه مشاكل المجتمع الإسلامي ليحصل على صاع من تمر ويقدمه لمقاتلي الإسلام في لحظات حساسة، وفي مقابل ذلك نرى القرآن قد ذم الذين حقروا هذا العمل الصغير ظاهراً، الكبير واقعاً، وهددهم وأوعدهم بالعذاب الأليم الذي ينتظرهم. ومن هذه الواقعة تتضح حقيقة أخرى، وهي أن المسلمين في المجتمع الإسلامي الواقعي السالم يجب أن يحسوا جميعاً بالمسؤولية تجاه المشاكل التي تعترض المجتمع وتظهر فيه، ولا يجب أن ينتظروا الأغنياء والتمكنين يقوموا وحدهم بحل هذه المشاكل والمصاعب، بل على الضعفاء أيضاً أن يساهموا بما يستطيعون، مهما صغر وقل ما يقدمونه. لأن الإسلام يتعلق بالجميع لا بفئة منهم. وعلى هذا، فعلى الجميع أن يسعوا في حفظ الإسلام ولو ببذل النفوس والدماء، ويعملوا بكل وجودهم من أجل حياته وصيانتها. المهم أن كل فرد يجب أن يبذل ما يستطيع، ولا يلتفت إلى مقدار عطائه، فليس المعيار كثرة العطاء وقلته، بل الإحساس بالمسؤولية والإخلاص في العمل. ومن المناسب في هذا المقام أن نطالع حديثاً نقل عن النبي ﷺ، حيث سئل: أي الصدقة أفضل؟ فقال ﷺ: «جهد المقل».^(١)

(١) الأمل في تفسير كتاب الله المنزل - الشيخ ناصر مكارم الشيرازي - ج ٦ - ص ١٤٢

الفهرس

٥.....	المقدمة
٧.....	الدرس الأول
٧.....	حبّ الجاه والعزة الموهومة
٧.....	قصة هاتين الآيتين
٩.....	حبّ السلطة من أعظم الأمراض
٩.....	آفات حبّ الرئاسة
١٠.....	العزة الحقيقية والعزة الموهومة
١٠.....	أولاً، العزة الحقيقية
١١.....	أعظم العز
١١.....	ثانياً، العزّة الموهومة
١٥.....	الدرس الثاني
١٥.....	التسويق والإصرار على التوبة
١٥.....	قصة هذه الآيات
١٦.....	إياك والتسويق
١٧.....	التسويق ملازم للهلاك
١٧.....	كيف نواجه حالة التسويق
١٨.....	أهمية الإصرار على التوبة
٢٣.....	الدرس الثالث

٢٣ حقيقة الإسلام ومراتبه
٢٣ قصة الآية
٢٣ حقيقة الإسلام
٢٥ مراتب الإسلام
٢٦ التسليم والطاعة لأمر رسول الله وخلفائه <small>عليه السلام</small>
٢٦ كيفية التسليم
٣١ الدرس الرابع
٣١ بلاء النعمة
٣١ قصة هذه الآيات
٣٢ الدروس المستفادة من القصة
٣٩ الدرس الخامس
٣٩ كتمان السر
٣٩ قصة هذه الآيات
٤٠ أهمية كتمان السر
٤٧ الدرس السادس
٤٧ الخيانة
٤٧ قصة الآية
٤٨ أنواع الأمانات وكيف تكون الخيانة
٤٩ من مصاديق الخيانة
٥٥ الدرس السابع
٥٥ المفاخرة بالإيمان
٥٥ قصة هذه الآيات
٥٦ ما هو الفخر؟

٥٦.....الفخر من الآفات المهلكات

٥٧.....أسباب وقوع الإنسان في الفخر

٥٨.....كيف نعالج الفخر؟

٥٨.....ما يصح الفخر به

٦٣.....**الدرس الثامن**

٦٣.....**الرقابة الإلهية والرقابة الذاتية**

٦٣.....قصة هذه الآيات

٦٤.....الرقابة الإلهية

٦٥.....الرقابة الذاتية لدى المسلم

٦٦.....المراقبة في الطاعة والمعصية

٧١.....**الدرس التاسع**

٧١.....**حصانة المسلمين**

٧١.....قصة هاتين الآيتين

٧٢.....حصانة المسلمين

٧٣.....الحذر من الغفلة عن الأعداء

٧٣.....الصلح لا يمنع الحذر

٧٣.....الصحيح سوء الظن بالأعداء لا حسن الظن بهم

٧٤.....تربية أهل البيت عليه السلام لشيعتهم

٧٩.....**الدرس العاشر**

٧٩.....**من المظالم: تحقير المؤمنين**

٧٩.....قصة هاتين الآيتين

٨١.....تحقير المؤمن ظلم

٨١.....عقوبة تحقير المؤمن

- ٨٢ كيف نعالج هذا المرض الأخلاقي؟
- ٨٤ معايير التقييم
- ٨٧ **الدرس الحادي عشر**
- ٨٧ **منطق التبرير**
- ٨٧ قصة هذه الآيات
- ٨٨ منطق التبرير
- ٨٨ منطق التبرير، ذنب يضاف إلى ذنب
- ٨٩ منطق التبرير وانعدام التوبة
- ٩٠ منطق التبرير والإصرار على الذنب
- ٩٠ منطق التبرير والاستخفاف بالذنب
- ٩٣ **الدرس الثاني عشر**
- ٩٣ **معيّار العمل الصالح**
- ٩٣ قصة هاتين الآيتين
- ٩٤ المعيار في قيمة العمل في الإسلام
- ٩٤ العمل الأفضل عند الله
- ١٠١ **الفهرس**